ألوان الطيف

عادل أسعد الميري

رواية

fb/mashro3pdf

ألــوان الطيــف

عادل أسعد الميري

fb/mashro3pdf

◆ **Author** : Adel Asaad Al Mairy ◆ المؤلف: عادل أسعد الميري
◆ **Title**: Rainbow ◆ العنوان: ألوان الطيف
◆ **First Edition**: 2017 ◆ الطبعة الأولى، 2017
◆ **Cover Design by**: Afaq ◆ تصميم الغلاف: آفاق

رقم الإيداع:
٢٠١٦ / ١٤٥٥٧
الترقيم الدولي : ISBN
978 - 977 - 765 - 058 - 8

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

fb/mashro3pdf

ألوان الطـيف

رواية

عادل أسعد الميري

آفاق للنشر والتوزيع

fb/mashro3pdf

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

الميري، عادل أسعد.

ألوان الطيف: عادل أسعد الميري

ط1 القاهرة -دار آفاق للنشر والتوزيع - 2017

204 ص، 20 سم.

رقم الإيداع 14557 / 2016

الترقيم الدولي 978 - 977 - 765 - 058 - 8

1 - روايات

أ - العنوان

fb/mashro3pdf

أهدي هذه المذكّرات إلى (جحوتي)،
إله الكتابة والحكمة في مصر القديمة،
وهي شذرات من حياتي بين فرنسا ومصر،
الحياة التي كان أهم ما فيها هو
عملي كتورليدر (أي قائد مجموعات سياحية)
خلال ما يقرب من عشرين عاما.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الفصل الأول

(١)

١٩٦٠. في المدرسة الابتدائية كانت هناك محاولات للتحرّش بي من بعض المحيطين بي من التلاميذ الأكبر سنّا. لم أكن أجد من أحكي له أولا بأول عمّا يحدث لي ويحيّرني. تعرفّت مبكّرا جدا على أول قضيب في حياتي. كان رجلا متقدّما في السن تجاوز الستين، يسكن في طابق أرضي إلى جوارنا في نفس الشارع. لاحظ طبعا بسهولة شديدة أنني أفتقد الأب وأحنّ إلى العواطف التي حُرِمْت منها. حاول هو أن يوحيّ اليّ بأنه يمكنه أن يحلّ محلّ أبي. صدّقته لأني أردت تصديقه.

كانت أمّي تعمل ولا تعود الينا أنا وأخي الأصغر الذي لم يكن قد ذهب بعد إلى المدرسة، إلا في السادسة مساء. كانت تترك أخي في الشقة الصغيرة وحده. كانت تربطه من ساقه إلى السرير وتضع إلى جواره بعض البسكوت والماء والقصرية التي يمكنه أن يتبوّل أو يتبرّز فيها. لم تكن لدى أمّي في ذلك الوقت أيّة أفكار تتعلق بأساليب التربية الحديثة،

fb/mashro3pdf

ولا كان لديها الوعي الكافي لإدراك خطورة معاملة طفل الرابعة كما لو كان حيوانا صغيرا. كنت أنا في السابعة عندما تعرفّت على الجار ريشار. كان يظهر لي دائما في نافذة طابقه الأرضي. كنت أتسكّع في الشارع أمام البيت لا أعرف ماذا أفعل، إذ لم أكن أريد الدخول إلى شقتنا وتحرير أخي من قيوده.

لم تكن أمي متعلمة إلى ما بعد المدرسة الابتدائية، كانت قد ولدت لأبوين مجهولين ثم تركت أمام باب أحد الملاجئ الباريسية، الذي ذهبت أنا إليه لاحقا بحثا عن أي شيء قد يتعلّق بطفولة أمي التي كانت تحاول أن تتناساها تماما. هذا الملجأ لا يزال موجودا في نفس مكانه بشارع أليزيا، بالقرب من ميدان جومون في منطقة بالدائرة الثالثة عشر بباريس. أمي من مواليد سنة ١٩٢٧. لم تحصل من التعليم العام الا على أقل القليل، خاصة أنها كانت قد وصلت إلى مرحلة المدرسة المتوسّطة في بداية الحرب العالمية الثانية، حين قلّت الموارد جدا، وقلت ميزانيات التعليم تحت الاحتلال النازي لباريس. لذلك لم تكن تدرك الخطأ في أنها كانت وأنا صغير تخيفني بالساحرة الشريرة. كم تغيّرت خلال بضع عشرات من السنوات فكرة المجتمع عن أساليب التربية.

بدأ ريشار أولا بأن قدّم لي من النافذة حيث أرى نصفه الأعلى، الشوكولاتة والفاكهة. كنت في ذلك الوقت من عمري أشعر دائما بالجوع، ولم تكن أمّي تعطيني مصروفا مدرسيا يسمح لي بشراء بعض الحلوى. كانت قاسية جدا. أو جاهلة جدا. أو مهملة جدا. أو أن قسوة

fb/mashro3pdf

الحياة علمّتها ألا تدلّل طفليها وهي تعتقد أنها بذلك تكسبهما قدرا من الخشونة. ثم بدأ ثانيا في دعوتي إلى داخل شقّته حيث الدفء في فصل الشتاء الطويل، والتلفزيون وأفلام الرسوم المتحرّكة في بقية العام.

من الغريب أنه حتى ذلك الوقت لم يكن لدينا تلفزيون. لعل والدي اشتراه بعد ذلك الوقت مباشرة. عندما كان ريشار يدعوني إلى داخل الشقّة كنت أجده جالسا إلى فوتي ضخم فيأخذني بين ذراعيه ثم يقبّلني ويتركني واقفا بين ساقيه، ثم يعود ويحيطني بذراعيه ويقبّلني في رأسي وفي ذراعيّ وفي كل مكان من أجزاء جسمي لم تكن تغطّيه الملابس. لم أكن أجد في ذلك أي إحساس بالضيق بل على العكس. كنت محروما من الأحضان والقبلات. كانت أمّي جافة جدا في عواطفها، وكان أبي شبه غائب طول الوقت.

(٢)

لا يختار الإنسان أي شيء في حياته، بل كل أحداث حياته هي حتمية لا فكاك منها. بعد بضع مرّات من استضافته لي قادني إلى حجرة نومه حيث تمدّد على فراشه، وأمسك بكتاب له غلاف ملوّن ليقرأ لي فيه قصصا للأطفال. لم تكن أمي تفعل ذلك، بل تكتفي عندما تعود منهكة من عملها بأن تأخذنا أنا وأخي إلى البانيو، ثم إلى المطبخ. ثم حدث أن دعاني إلى خلع فردتي حذائي وجوربي والصعود إلى جواره على الفراش لأنه سيحكي لي قصة ويعرض عليّ صورا منها في كتاب قصص الأطفال.

fb/mashro3pdf

كنت مغرما بالصور الملوّنة في كتب الأطفال، ولم تكن أمّي قادرة على أن تشتري لي المجلات الملوّنة للأطفال. مرّة بعد مرّة في الفراش وجدته يحيط جسمي الصغير بذراعه، ثم أدخل يده أسفل بنطالي القصير.

في هذه اللحظة شعرت لأول مرّة في حياتي بهذا العضو الصغير عندما بدأت الدماء تتدفّق اليه. أحببت ذلك الإحساس. أتعجّب الآن كيف مرّت سنوات طفولتي حتى السابعة دون أن يحدث ما يثير في جسمي هذا النوع من الاحساس في هذا العضو. فيما بعد كان يمرّر يده على ظهري. وعلى أسفل ظهري. وعلى إليَتيّ. ثم بدأ بهدوء شديد يفكّ أزرار البنطال. ولم أعارض. فاستمر حتى خلعه عني. ثم أمسك في يده بعضوي الصغير. ثم أراني عضوه الكبير منتصبا ودعاني إلى لمسه. كانت مفاجأة كبيرة جدا لي لكني لم أشعر بالخوف.

من الغريب أنه لم يحدث أبدا بعد ذلك أن تطوّر هذا الموقف إلى اختراق جسدي الصغير من خرمي الخلفي. ولم يحدث أبدا أن أجبرني على استعمال فتحتي الأمامية الواسعة في مصّ عضوه. أو حتى في مجرد لحسه. لكنه كان يكتفي تماما بأن يتركني ألعب بعضوه كما لو كان أداة لهو لطفل صغير، حتى يحصل على لذّته. كان ينتفض في مكانه حتى أنني في أول مرّة اعتقدت أنه سيموت.

كانت هذه هي بداية علاقتي بالقضبان. وبداية إدراك أن هناك فيَ الصبيان خروم خلفية صغيرة، وأخرى أمامية كبيرة. هذا الرجل لم أكرهه أبدا في حياتي. بل ظللت أحتفظ له بذكرى طيبة خاصة بعد أن مات وأنا

fb/mashro3pdf

في العاشرة وكان لا يزال يسكن إلى جوارنا. الطفل الذي كنته لم يذكر أي شيء لوالديه، لأن الطفل الذي كنته كان يحصل هو الآخر على قدر كبير من الإحساس باللذّة التي يحصل على مثلها العجوز. بالإضافة إلى الحلويّات والمأكولات. وكان كل شيء يتم في سلاسة ويسر.

(٣)

١٩٦٥. خرجت إلى باريس الكبرى بالمترو، كنت أصل إلى محطة كليشي ثم أمشي حتى بيجال، لأتفرّج في الصباح والمساء على عاهرات الحيّ الواقفات على أبواب محلات عملهنّ. كنت في الثانية عشرة عندما أخذتني (صوفي)، وهي سيدة أربعينية أي أنها كانت أكبر من أمي بعشر سنوات، أخذتني من يدي وصعدت بي إلى حجرتها. كانت لديها عاطفة قويّة تجاهي. كان هذا واضحا في حنانها ولمسات يديها. والقبلات التي كانت تغمرني بها في كل مرة ذهبت فيها إليها.

كانت صوفي تقول لي إنها فقدت ابنها الطفل وهو في الثالثة بسبب مرض غامض أصاب جهازه العصبي. وأنه لو كان قد عاش لبلغ الآن السن الذي كنت فيه وقتها. من الغريب أن أحدا لم يلتفت إليها أثناء صعودنا سويّا إلى الطابق الثالث من المبنى حيث تقع حجرتها. تقابلنا مع رجال ونساء يصعدون ويهبطون، ولم يقل لها أحد أي شيء. ولا كلمة واحدة.

كانت صوفي تعرف تقريبا كل النساء أما الرجال فكانوا دائما

fb/mashro3pdf

مختلفين، فالزبائن يتغيّرون يوما بعد يوم. لم ألاحظ أبدا حتى ولا ابتسامة ماكرة واحدة على وجه واحد منهم أو واحدة منهنّ. من المحتمل أن كانت فرنسا قد دخلت فعلا في مرحلة الحرّيّات الخاصة التي انفجرت معالمها بوضوح بعد مايو ١٩٦٨. ليس لدي الا هذا التفسير.

لم يكونوا يدركون الكثير من مفاهيم علوم التربية الحديثة. الآن وأنا أكتب هذا الكلام أصبح من حقّ، بل أصبح من واجب أي شخص يرى مثل هذا المنظر، لطفل يصعد مع داعرة إلى حجرتها، أن يتصّل بالشرطة لابلاغها. هكذا تقول نظريات علم النفس الحديثة إنه يجب تجنيب الأطفال حتى نهاية فترة المراهقة خوض تجارب جنسية مع من يكونون في سن الوالدين. أمّا محاولات الاكتشاف بين الأطفال من نفس السن فهي عادةً لا غبار عليها.

(٤)

كنت طفلا شقيّا. (ضربت ٤٠٠ ضربة) هو تعبير كنا نستعمله على زمن طفولتي، وحتى على زمن طفولة أبي، في فرنسا للتدليل على الصياغة المبكّرة، وعلى أن الأطفال قادرون على فعل كل شيء يخطر على بالهم. أو كما تعلمت لاحقا في مصر أنهم يقولون (احنا اللي دهننا الهوا دوكو) أو (احنا اللي خرمنا التعريفة). كان المصريون يندهشون جدا عندما أكرر أمامهم تلك الأمثال الشعبية التي تعلمتها من عبد السلام. (لبّس البوصة تبقى عروسة) و(يا داخل بين البصلة وقشرتها). كنت

fb/mashro3pdf

أستعمل هذه الأمثال في الحياة اليومية، فكنت أجد ردود أفعال كوميدية جدا تبدو على تعبيرات وجه من يسمعني.

(٤٠٠ ضربة) هو عنوان فيلم فرنسوا تريفو Truffaut، وكان بطل الفيلم قد فقد والده مبكّرا، وكانت أمّه تعيش مع رجل آخر في نفس المنزل، وهي شقّة صغيرة في أحد أحياء باريس الشعبية، كان الصبي بطل الفيلم يغادر المنزل صباحا لكنه لا يذهب إلى المدرسة، بل يصيع في شوارع باريس، وهو بالكاد في سن العاشرة، يحاول اكتشاف المدينة قدر استطاعته في ذلك السن المبكّر.

من بين أقوى مناظر الفيلم، تلك اللقطة التي نراه فيها وقد دخل إلى آلة كانت قد انتشرت لفترة في الأربعينات والخمسينات، كواحدة من أدوات المغامرة واللهو في باريس ما بعد الحرب العالمية الثانية، عبارة عن أسطوانة تدور بسرعة كبيرة حول محور رأسي، في عملية علمية معروفة باسم الطارد المركزي centrifugator، فبمجرّد أن تبدأ الأسطوانة في الدوران، يلتصق الناس داخلها إلى جدرانها الجانبية الدائرية، ويزيد التصاقهم بها كلما زادت سرعة الدوران، وإذا بهم يرتفعون رأسيا بالتدريج على الجدران، ثم عندما تبدأ الأسطوانة في تخفيض سرعتها التدريجي، يهبط الناس من جديد إلى المستوى الأفقي الأول.

قادته صياعته تلك إلى السرقة، سرق آلة كاتبة (تايب رايتر) من أحد المكاتب الحكومية وباعها في الشارع. قبض عليه وسيقَ إلى إصلاحية أحداث. لكنه لم يحتمل قضبان السجون، فهرب منها بالقفز فوق

fb/mashro3pdf

الأسوار، ثم جريا في الغابات، ليظهر في المنظر الأخير بالفيلم على شاطئ البحر، وقد شعر مبكّرا جدا في حياته، بأهمية حريّة الانطلاق في الفضاءات المفتوحة، كطائر مغرّد منفرد يغنّي خارج السرب.

أما الفيلم الثاني المرتبط بطفولتي ولا أدري لماذا، فهو من أفضل أفلام جودار، فيلم (عاشت حياتها)، ويحكي برومانسية شديدة قصة حياة فتاة ليل، رقيقة الملامح جدا، وبشعر أسود قصير مقصوص وفقا للموضة وقتها (آلا جارسون). هي تعمل في الدعارة في حي بيجال. لكننا جميعا، أقصد كل مشاهدي الفيلم، نتعاطف معها في التو واللحظة، بمجرّد ظهورها على الشاشة في اللقطة الأولى. قد يكون هذا الفيلم هو السبب في شعوري الدائم بالتعاطف مع كل فتيات الليل اللائي قابلتهنّ في حياتي.

أعتقد أن فيلم تريفو كان قد عُرِضَ في التلفزيون الفرنسي، أمّا فيلم جودار فلم يكن له أن يعرض في التلفزيون الذي تجلس أمامه العائلات الفرنسية بكل أفرادها، وذلك لأن فرنسا لم تتحرّر من تلك القيود الأخلاقية المتزمّتة الا بعد مايو ١٩٦٨. بالتالي أنا لم أعد أذكر أين شاهدت (عاشت حياتها) لأول مرة.

(٥)

في طفولتي سكنّا في آنيار بضواحي باريس، وهو أحد أحياء الشمال الغربي. كنا في منطقة تقع بالقرب من دار عمودية الحيّ. وهي في نفس

fb/mashro3pdf

الوقت في منتصف المسافة بين محطة مترو جابريال بيري ومحطة لطار آنيار. كنت أمشي بخطوتي المتسكّعة عشر دقائق حتى أصل إلى الواحدة أو الأخرى. كان أكثر ما يلفت انتباهي في الطريق إلى محطة لطار آنيار، هو تمثال من الحجر الأسود يقف أمام مدخل مدرسة ثانوية للبنات، للرئيس شارل ديجول وهو يقف مع وزير ثقافته أندريه مالرو وهما بضعف الحجم الطبيعي للبشر. كان ديجول ينحني بقامته الضخمة ليتحدث إلى مالرو في أذنه كأنه يفشي له سرا لا يصح للبشر العاديين الذين سيمرون بمئات الآلاف أن يعرفوه.

عدا ذلك كنت أثناء مروري أمام محلات الطعام المعروض في الفاترينات، ألتفت بشدّة إلى كل تلك الروائح الجميلة الخارجة من أبواب تلك المحلات، خاصة أمام المخابز التي تعرض العديد من الأشكال والألوان المختلفة من المخبوزات الشهيّة، ولم يكن معي أبدا ما يكفي من المال لشراء أي شيء. كنت أستغل فرصة خلو مدخل المخبز من الباعة لأخطف أول شيء تقع عليه يدي ثم أجري دون توقّف حتى أدخل محطة القطار وأضيع في الزحام.

لم يتمكن أبدا صاحب المخبز أو صبيانه من إدراك ما يحدث. أو أنهم كانوا يدركون لكنهم كانوا بشكل عام في فرنسا قد بدأوا في التعاطف مع الفقراء خاصة من الأطفال. بعد ذلك سيتحوّل الطفل في فرنسا بداية من منتصف السبعينات إلى ملك متوّج له الحق في كل شيء حتى لو لم يكن والده قادرا على الدفع. أدرك المجتمع أنه لا يصح أن يدفع طفل العائلة

fb/mashro3pdf

الفقيرة ثمن فقر والديه بأن يعاني من الحرمان، في حين أن طفل العائلة الثريّة يتمتع بكل شيء.

(٦)

في الصف السادس الابتدائي كانت لدينا في الكتاب المدرسي صورة لنهر النيل وفلوكة بشراع تندفع بقوّة مع تيّار الهواء إن كانت مبحرة إلى الجنوب، قال المدرس

(إن الفلوكة هنا تصعد النهر)

ثم تطوي شراعها وتندفع بقوّة مع تيّار الماء إن كانت مبحرة إلى الشمال قال المدرس

(إن الفلوكة هنا تهبط النهر)

ثم شرح لنا أن هبوط النهر هو بالاتجاه نحو مصبّه، أما صعود النهر فهو بالاتجاه نحو منبعه.

قال (مصر القديمة كانت قد اقترحت على الخيال البشري أن تكون رحلة النجوم في السماء هي على ظهر مراكب صغيرة تمثّل ساعات النهار والليل، وقد انعكس هذا التصوّر على الثقافة العربية، إذ إن كلمة فلك في اللغة العربية تعني في نفس الوقت سفينة وكذلك تعني علم دراسة النجوم. ثم إن كلمة بحار السفينة في كل اللغات اللاتينية هي كلمة نوتي العربية ذات الأصول الفرعونية، فهي في الفرنسية مثلا كلمة نوتيك nautique، وكلاهما مشتق من اسم نوت الهة السماء في مصر القديمة،

fb/mashro3pdf

التي كانت النجوم في مراكبها تبحر على جسدها المفرود فوق قبّة السماء نهارا وليلا، ليس عليكم لتتأكدوا الا أن تشاهدوا أسقف أغلب حجرات الدفن في مقابر وادي الملوك من الدولة الحديثة)

هذا هو أول ما علق بدماغي من موضوع مصر، الفلك/ النجوم/ السفينة، ثم موضوع صعود النهر وهبوط النهر، هذه الخاصية المصرية صاحبة الفضل في إمكانيّة استعمال نهر النيل في الملاحة، لوجود قوتين من قوى الطبيعة تعملان معا واحدة ضدّ الأخرى في انسجام وتناغم وهارمونية. استعمال الرياح لصعود النهر واستعمال تيّار الماء لهبوطه. عندما عدت إلى المنزل سألت أبي في هذا الموضوع، ولم يتمكن من أن يشفي غليلي.

في طفولتي أخذونا مرة إلى متحف اللوفر حيث بقينا حوالي ساعتين في قسم المصريات. أتذكر قول المدرّس أن هناك في الكتابة الهيروغليفية ٧٠٠ شكل مختلف للطيور لها دلالات لغوية مختلفة. كان عدد تماثيل النساء أكبر من عدد تماثيل الرجال. وكانت كلها ذات ألوان جذّابة. توقفت أمام تمثال خشبي ملوّن لامرأة ذات قوام ممشوق تحمل فوق رأسها سلّة وتمسك في يدها بأوزّة، وتمشي برشاقة منقطعة النظير. هذه هي صورة مصر بالنسبة لذهن الطفل الذي كنته. هذه الفلوكة وهذا التمثال. أتعجّب كيف أن أشياء صغيرة يمكنها أن تحدّد مصير انسان.

fb/mashro3pdf

(٧)

من الملحوظات التي ذكرها مدرّس ابتدائي، وظلت عالقة في ذهني لسنوات طويلة، حتى تأكّدت من صحّتها، ملحوظة تتعلق بمكان السماء والعالم الآخر في مصر القديمة، وارتباطه بمكان دفن المتوفّين. ففي تاريخ مصر القديمة حدثت تغيّرات هامة جدا في تاريخ الأفكار البشرية. فعندما كان الذهاب إلى عالم الأموات مقتصرا على الملوك وعائلاتهم ومحاسيبهم، إذ لم يكن للفقراء من عامة الشعب الحقّ في الذهاب إلى العالم الآخر، بنيت الأهرامات كمدارج هائلة تصل الأرض بالسماء، ليتمكّن الملوك وعائلاتهم ومحاسيبهم، من الذهاب إلى العالم الآخر وموقعه في السماء.

ثم ثارت الفئات المطحونة، أول ثورة شعبية في التاريخ، في نهاية الأسرة السادسة، وحرق الفقراء قصور الأغنياء، واكتسبوا بأذرعهم العارية الحق في الذهاب إلى العالم الآخر، لكنهم لم يدفنوا في أهرامات، بل دفنوا في باطن الأرض، لأنه ليس من الممكن بناء أهرامات لكل البشر، في هذه اللحظة تحوّل العالم الآخر، من سكنى السماء إلى سكنى باطن الأرض. الا أنه في الحالتين، سواء للذهاب إلى السماء، أو للذهاب إلى باطن الأرض، لم يفكّر المصريون في وسيلة مواصلات أخرى عدا المراكب الشراعية، التي كانت وسيلة المواصلات الوحيدة التي استعملوها، منذ الأسرة الأولى وحتى الأسرة الأخيرة، قبل وبعد

fb/mashro3pdf

اختراع العجلة، وقبل وبعد اكتشاف الحصان.

(٨)

السؤال الذي كثيرا ما سألته لنفسي طوال حياتي حتى تركت منزل والدي ووالدتي في سن العشرين، هو لماذا رغم عمل أبي الذي كان يدرّ عليه دخلا كبيرا، استمرّت أمّي هي الأخرى في العمل كبائعة في محلات السوبر ماركت وغيرها من المحلات، بل أحيانا حتى العمل كخادمة في منازل الأغنياء؟ العمل في حدّ ذاته ليس عيبا لكن المشكلة هي في غياب كل من الأم والأب فترات طويلة من حياتي عندما كنت محتاجا اليهما في طفولتي ومراهقتي. كانت أمّي قد بدأت تشكّ في أن لأبي علاقات متعدّدة مع نساء أخريات يسكنّ عواصم تلك البلاد البعيدة، كما هو الحال مع البحّارة الذين يعملون في خطوط مراكب البحرية التجارية في نقل البضائع بين الموانئ، حيث يكون لكل بحّار عشيقة في كل ميناء من الموانئ على الخط الملاحي.

في إنجلترا كان أبي قد بدأ في العمل كسائق سيّارات نقل ثقيل على الطرق السريعة بين المدن الكبيرة، في الخمسينات قبل حفر النفق عبر المانش بسنوات طويلة. لهذا كانت مناطق عمله محدودة داخل جزيرة بريطانيا واسكتلندا. أما في زمن الرئيس ديجول فقد اتّسعت العلاقات التجارية لفرنسا بجيرانها الأوروبيين، تمهيدا لما سيحدث بعد ذلك من قيام الوحدة الأوروبية ليس فقط على المستوى التجاري بل أيضا كذلك

fb/mashro3pdf

على المستوى السياسي. عندما علم أبي بحاجة شركات النقل الثقيل للمسافات الطويلة في القارة الأوروبية إلى سائقين ذوي خبرة كبيرة، خاصة ممن يجيدون الإنجليزية، أكثر اللغات الأوروبية انتشارا حتى في ذلك الوقت المبكّر من منتصف القرن العشرين، انتقل إلى فرنسا.

عمل أبي سائقا في شركة النقل (ترانسأوروب)، وكان من السهل عليه أن يتنقّل بين المدن المختلفة التي تروق له، لسبب بسيط وهو أن هذه الشركة التي كان يعمل بها كانت لديها مكاتب في عدد كبير من المدن الفرنسية، وبالتالي كانت تتولى نقل بضائع ومنتجات فرنسية شديدة الاختلاف إلى الدول في الجوار. عندما سكنّا باريس كان يذهب بسيارته بالثلاجات الكهربائية وبأجهزة التكييف الفرنسية إلى بلجيكا ولوكسومبورج. أما من مارسيليا فكان يمكنه الذهاب بالموبيليا (أثاث المنازل) وبالملابس الجاهزة إلى مدن سويسرا وشمال إيطاليا، أو من الجهة الأخرى إلى مدن شرق اسبانيا التي كانت لا تزال حتى منتصف السبعينات تعاني من تخلّف الإدارة الاستبدادية لحكم فرانكو.

طوال حياتي في فرنسا، كان اسم أبي الإنجليزي (جيمس جولدينج) يلفت دائما انتباه الناس إلى الأصل العرقي المختلف لأسرة أبي، في حين كانت أمي قد أصرّت على أن أحمل اسما فرنسيا قحّا. وفي الحقيقة كان الاسمان معا اسمي ثم اسم أبي ولقب عائلته يشيران بوضوح شديد إلى قمّة الارتباك. (فرنسوا جيمس جولدينج).

fb/mashro3pdf

الفصل الثاني

(١)

١٩٨٠. أكثر ما ضايقني هناك هو أنهم رغم اسلامهم فإن الأغلبية لا زالت تؤمن بوجود العفاريت والجان والأرواح، وبتحكّمها التام في حياتهم. قد يكون هذا موجودا داخل كتبهم المقدّسة؟ في الحقيقة أنا لا أعرف. لكنهم لديهم الاعتقاد الجازم الذي لا سبيل إلى مقاومته في وجود الأرواح الخيّرة والأرواح الشرّيرة. الخيّرة هي مثلا التي تسقط المطر عند الحاجة إلى الماء، والشرّيرة مثلا هي التي ترسل الأمراض لتقتل الناس بها.

ثم هناك كذلك مناظر الفقر المدقع الذي لم أجد له مثيلا ولا حتى في قرى صعيد مصر. كأن يُتْرك الفقير في وسط الشارع للموت جوعا، ثم تترك جثّته ممدّدة في وسط الشارع يوما أو أكثر، حتى تصل السلطات المحلية وتقوم برفع الجثّة. هذا لا يحدث للكلاب في فرنسا. لم أجد هذا في أي مكان آخر في العالم، لدرجة أنني كنت أتساءل عن وجود أو عدم

fb/mashro3pdf

وجود المشاعر الانسانية لدى الكثير من الشعوب الأفريقية.

الفقير الجائع يُتْرَك في منتصف الشارع حتى الموت، ويمرّ حوله الناس من الجانبين، مشيا على أقدامهم أو راكبين سيّاراتهم، دون أن يمدّ له أي شخص يد العون، بل قد تتعثّر الأرجل في الجثّة، أو الأدهى دواليب السيّارات. أما المنظر الذي جعلني أتقيّأ فهو منظر الكلاب ملتفّة حول احدى الجثث. أمّا أهل البلد فإنهم لا يلتفتون اليه. لا ينظرون اليه. لا أعرف تماما السبب في ذلك. هل هو الاعتقاد في أن هذا هو القدر المحتوم الذي لا ينبغي مواجهته والاعتراض عليه؟ أم أن السبب هو في قسوة الحياة بشكل عام في أفريقيا، حتى بعد استقلال تلك الدول عن المستعمر الفرنسي أو الإنجليزي بعشرات السنوات؟

هناك كذلك مناظر ضرب الرجال لنسائهم في الشوارع، ومنع الرجال الآخرين أي شخص من محاولة التدخّل لإنقاذ المسكينة من براثن زوجها. أغلب الرجال هناك طوال القامة جدا ويتميّزون بقوّة عضلية لا أعرف كيف حصلوا عليها. لكن من علّم الناس هناك هذه القسوة؟ يقولون إن من حق الزوج ضرب زوجته. يقولون إن هذا هو الإسلام. أنا لا أعرف أين هي الحقيقة بخصوص هذا الدين الذي كان يبدو لي جذّابا وأنا مراهق في فرنسا.

سأعرف فيما بعد أن الذي يميّز حقا المصريين هو طابعهم اللطيف المتناغم مع الحياة. هذا الموقف من الحياة الذي يتلخّص في جملة واحدة طالما تكرّرت على ألسنتهم جميعا خاصة البسطاء منهم.

fb/mashro3pdf

ثم استعدادهم الدائم لخدمتك حتى لو لم يكن هناك دافع مادي أو مصلحة مالية. هم يصطحبونك في الشارع إلى العنوان الذي تبحث عنه حتى تجده. يجوز أن كوني فرنسيا أو أجنبيا أشقر الملامح هو الدافع وراء تلك الخدمات. ثم هم دائما مبتسمون ومستعدّون لالقاء النكات، التي رغم معرفتي الجيّدة بالعامية لم أكن أفهم أغلبها، لكني تعلّمت منهم كيف أضحك حتى لو لم أكن أفهم. لكل هذه الأسباب كنت قد تركت داكار بعد أقل من عام واحد. وبقيت في مصر عشرين عاما.

(٢)

بدأ نظام التجنيد الثقافي هذا منذ بداية الثمانينات، وهو النظام الذي يسمح للشباب الفرنسي بالخدمة في المؤسّسات الثقافية الفرنسية خارج فرنسا، بدلا من الخدمة في القوّات المسلّحة، وهو نفس الوقت الذي بدأت فيه كل دول الاتحاد الأوروبي، في تقليل أعداد جنود قوّاتها المسلّحة، كإشارة إلى حسن النوايا، والى الرغبة التي سادت الجميع، في أن يعمّ السلام على القارة الأوروبية، بعد تجربتين مؤلمتين في حربين عالميتين. ذهبت للعمل في تدريس اللغة الفرنسية للأفارقة بالمركز الثقافي الفرنسي في داكار بالسنغال.

كنت أحصل على مرتب جيّد هو ضعف الذي يحصل عليه المجنّد في فرنسا، وبالتالي تمكنت من الحصول على سكن لائق في الحيّ

fb/mashro3pdf

الافرنجي بالمدينة. لذلك فكرت في دعوة أوريلي. كنا لا نزال على علاقة صداقة طيّبة. أرسلت إليها أقترح عليها أن تأتي إلى أفريقيا لتقضي معي أسبوعا أو أسبوعين في محاولة لاكتشاف أفريقيا التي تحبها. كانت تحب موسيقاها ومغنّيها وسينمائييها ومؤلفيها.

كان طراز المعمار البرتغالي منتشرا في ضواحي داكار بتأثير من مرور البحّارة البرتغاليين بهذه السواحل لمدة قرون طويلة. كان منزلي الذي سكنت فيه من هذا الطراز، الذي يعتبر أكثر ما يميّزه عدم وجود نوافذ بل شرفات تحيط بالطابق بأكمله، بامتداده من جهاته الأربع، في كل طابق من طوابق المنزل، وهو ما يوفّر للسكان أكبر قدر ممكن من الهواء، خاصة لأولئك السكّان الذين لا يرغبون في مغادرة منازلهم، فهذا الطراز يتيح لهم استنشاق الهواء طول الوقت، في هذه المدينة الساحلية الجميلة، رغم ارتفاع درجة حرارة الجو خاصة في فصل الصيف.

حصلت على سيّارة رينو فرنسية متوسّطة العمر بسعر رخيص جدا. الا أن قيادتها في شوارع داكار، كانت تحدّيا دائما لا يدانيه الا تحدّي قيادة السيّارات في مصر الذي سأواجهه لاحقا. فبالاضافة إلى النوعية الرديئة لأسفلت الشوارع، ووجود عدد كبير من الشوارع دون أسفلت، أي أنها مجرّد مدقّات رملية أو ترابية، حتى في وسط المدينة حيث التجارة وإدارة الأعمال.

فإن المشاكل الحقيقية تتعلّق بالجهل التام بأبسط قواعد القيادة، كأن تمر السيّارات إلى يمين سيّارتك بدلا من المرور إلى اليسار كما هو متبّع

fb/mashro3pdf

في كل الدنيا، وكأن تعبر السيّارات التقاطعات بسرعة كبيرة دون احترام إشارات المرور، ودون حتى النظر في الاتجّاهات الأخرى. أخطر ما في الموضوع هو عبور السنغاليين الطريق فجأة في أي مكان من رصيف إلى رصيف، دون وضع السيّارات المارة في اعتبارهم على الاطلاق. هم كلهم مسلمون وبالتالي يؤمنون بأنه لو كان قَدَرك المكتوب على جبينك، هو أن تموت مدهوسا تحت عجلات سيّارة، فلن ينفعك أي حرص أو احتياطات أمان، عن الموت بالشكل المقدّر والمكتوب لك.

(٣)

١٩٨٣. بعد أن أنهيت خدمتي العسكرية، وكنت قبلها قد حصلت على الدبلوم العالي في الخدمات السياحية، ويسمّونه بالفرنسية DEUG، وجدت وظيفة على الفور في احدى شركات السياحة متعدّدة الجنسيّات، كمخطط ومنفذ برامج سياحية، رغم أنني لم أكن أحب الجلوس إلى مكتب. لذلك حاولت داخل الشركة أن أحصل على عمل يسمح لي بالنزول إلى الشوارع والاختلاط بالناس، وهذه الوظيفة هي قائد مجموعات سياحية أو تور ليدر. أذهب إلى المطار أستقبل المجموعة السياحية عند وصولها مثلا إلى مطار القاهرة.

أقف باليافطة التي تحمل اسم شركتي فيتجمّع حولي الفرنسيون الذين حجزوا رحلتهم إلى مصر مع شركتي. أجمعهم ثم أسير بهم نحو الباص السياحي الذي ينتظرنا في موقف سيّارات المطار. هناك أجلسهم

fb/mashro3pdf

في الباص وأبدأ في النداء على أسمائهم واحدا واحدا، إذ يحدث أحيانا أثناء ارتباك لحظات الوصول إلى المطار، أن تختلط المسائل على بعض الناس فيذهبون إلى باصات لا تخصّ مجموعاتهم.

عند التأكد من أن كل الزبائن في الباص هم نفس الزبائن الذين أحمل في أوراقي قائمة بأسمائهم، يتحرّك الباص باتجاه الفندق. في البداية كانت شركتي متعاقدة مع فندقين قاهريين، أحدهما هو قصر محمد علي بالمنيل، والآخر هو فندق ميريديان القاهرة الذي كان يتمتّع بموقع جميل على الطرف الشمالي لجزيرة الروضة. عند الوصول إلى الفندق أقوم بتوزيع مفاتيح الغرف على الزبائن وجمع باسبورتاتهم، التي أحتفظ بها غالبا لمدة يوم أو يومين، حتى يتم تسجيل الأسماء مع أرقام جوازات السفر في مكتب شرطة السياحة.

كان من الضروري أن أذكر للزبائن رقم الغرفة التي أشغلها حتى يتمكنوا وقتما يريدون من الاتصال بي، فقد يسقط بعضهم مريضا بالنزلات المعوية بسبب اختلاف المطبخ المصري عن المطبخ الذي اعتاد عليه الزبون، أو أن يسقط مريضا بسبب الإرهاق وبسبب حرارة الجو، خاصة المتقدّمين في السن الذين كانوا يمثّلون نسبة لا بأس بها من إجمالي أعداد المجموعات السياحية.

أكبر مشكلة واجهتها عدّة مرّات هي وقوع شخص مسن أو طفل صغير، خاصة مثلا في ظلام معبد الكرنك أثناء عرض الصوت والضوء به، وانكسار قدم أو ساق أو ذراع، مما يحتّم ضرورة الذهاب بالمصاب

fb/mashro3pdf

إلى مستشفى مصري مثل المستشفى الحكومي بمدينة الأقصر. وما أدراك ما هو المستشفى المصري الحكومي. حتى أن بعض الفرنسيين في بعض الحالات كانوا يرفضون أن يلمسهم طبيب مصري، ويصرّون على العودة بالذراع المكسور إلى فرنسا على أوّل طائرة.

(٤)

كلما ذهبت وحدي إلى مكان وجدت عددا من الشبّان المصريين صغار السن يلاحقونني بعيونهم التي تبدو فيها الدعوة واضحة، ثم يقومون بالدوران حولي في الفراغ على أمل أن تأتي الدعوة مني. كل هذا لمجرّد أنني قد أتيت وحدي إلى مصر دون زوجة أو صديقة، هذا هو ما يجعلهم يتوقّعون أن أكون مثليا. شيء غريب جدا فأنا لم أكن أتوقع أن تكون هذه الظاهرة بهذا الحجم، رغم أن أصدقائي وصديقاتي الفرنسيين المقيمين في القاهرة منذ فترة ذكروا لي هذا من قبل.

كان تراب الصحراء يغطّي المباني السكنية المحيطة بقصر المنيل، بشكل غريب لم أره من قبل. ليس فقط المباني بل كل شيء، الأرصفة والسيارات والناس أنفسهم. يبدو أن هذا هو بسبب قرب القاهرة من الصحراء، بالإضافة إلى شبه انعدام سقوط الأمطار باستثناء أيام قليلة في الشتاء. هذا هو لقائي الأول بمصر، الخماسين وقصر المنيل والشبّان الذين يدورون حوله في محاولة لاصطياد سائح فرنسي وحيد.

جئت إلى القاهرة على طائرة مصر للطيران التي رغم أنها أقلعت

fb/mashro3pdf

في موعدها من مطار أورلي، الا أنها هبطت متأخّرة نصف ساعة عن موعدها. قال الطيّار إنه مضطر إلى الدوران حول المطار عدة مرات، ثم قال إنه قد يقرّر الذهاب إلى مطار الأقصر، حتى تتضّح الرؤية بسبب العاصفة الترابية التي غطّت سماء القاهرة. كانت هذه الخماسين هي أول ظاهرة جوّيّة أقابلها في الأجواء المصرية، وهكذا كذلك كانت كلمة خمسين هي أول كلمة عربية أتعلّمها حتى قبل الهبوط إلى أرض مصر. شيء غريب فعلا. أما العاصفة الترابية فلا يمكن أن تغني القراءة أبدا عن المشاهدة، أي لن تتمكن من فهم ما أتحدّث عنه الا إذا شاهدته بعينيك الاثنتين.

(٥)

١٩٨٤. في واحد من لقاءاتي الأولى بالفساد الإداري المصري، أنه عندما علم صديقي المصري برغبتي في الحصول على رخصة قيادة لم يذكر لي أي شيء عن أخيه الضابط، بل فقط طلب مني صورتين فوتوغرافيتين حديثتين، وصورة فوتوكوبي من باسبوري الفرنسي، وبعض المعلومات الشخصية الأخرى مثل عنوان محلّ إقامتي. عاد إلى زيارتي بعد أسبوع ليقدّم لي هديّة: رخصة قيادة مصرية باسمي. كنت قد تعلمت قيادة السيّارات في فرنسا، ورسبت عدّة مرات في الامتحانات قبل أن أتمكن من الحصول على رخصة قيادة فرنسية. صحيح لإن مصر هي أم الدنيا كما يقول المصريون، فهي لا تنطبق عليها أيّة قوانين من تلك

fb/mashro3pdf

التي نعرفها في بقية دول العالم، إذ إن لها في كل شيء قوانينها الخاصة بها.

هناك بعض المفاهيم الأوربية التي يثبت خطؤها، مثل أن تتوقّع فيما يتعلق بالشوارع عندما تكون في حالة بحث عن رقم منزل، أن أرقام المنازل في الشوارع تحكمها قاعدة واضحة. في الحقيقة أنت مخطىء في ظنّك هذا، فالأرقام تذهب وتجيء كما تشاء ودون أي رادع من ضرورات الالتزام إمّا بعدّ تصاعدي أو بعدّ تنازلي.

مثل آخر هو في حالة استعمال السيّارة التي تسبقك للاشارات الضوئية الدالة على رغبة قائدها في الانحراف يمينا أو يسارا، فلو أن قائد السيّارة التي تسبقك وضع لك الإشارة الدالة على رغبته في الانحراف إلى اليمين، فلا تنخدع بهذه الظواهر المضلّلة، ففي هذه الحالة يحدث أحيانا فعلا أن تنحرف السيّارة إلى اليمين، لكنها كذلك قد تنحرف إلى اليسار، أو حتى يمكنها كذلك أن تستمر سائرة في طريقها الطولي دون أي انحراف لا إلى جهة اليمين ولا إلى جهة اليسار، كما أنها يمكنها كذلك أن تتوقّف فجأة في منتصف الشارع دون أيّة مقدّمات.

كان أوّل ما يلفت انتباه السيّاح الفرنسيين في شوارع القاهرة، ذلك الأسلوب المتساهل الذي يعبر به المصريون شوارع المدينة، في أي مكان دون أن يضعوا في اعتبارهم مسألة مرور السيّارات. كنت أقول لهم إنه لا توجد أماكن عبور مشاة كافية، ثم أقول إن المصريين يؤمنون بالقدر، وبأنهم لن يصيبهم الا ما كتب الله لهم.

fb/mashro3pdf

ثم كان ثاني ما يلفت انتباههم في كل الشوارع بشكل عام، هي كثرة وجود الصور المبتسمة لوجه الرئيس مبارك في كل مكان، في الميادين وفي الطريق إلى المطار، وفي كل المدن، حتى على مدخل مجلس مدينة الأقصر، أو مدخل مجلس مدينة أسوان، ثم كانوا يقولون إنهم كانوا يعتقدون إنه أكبر سنّا مما تبدو عليه الصور، فأشرح لهم أنه منذ زمن المصريين القدماء، لم يكن الفراعنة يسمحون لأحد برسم صور لهم قد تظهرهم فوق سن الثلاثين. هذا هو الحد الأقصى المسموح به في صور الفراعنة الزعماء من ذوي الشباب الدائم.

(٦)

١٩٨٦. لم تكن هناك بعد أية قنوات فضائية، ولم تكن هناك بعد شبكة عنكبوتية، لكني كنت قادرا بواسطة جهاز راديو قوي على التقاط إذاعة فرنسا الدولية، بالإضافة إلى التقاط البي بي سي. في ذلك اليوم اتصل بي تلفونيا عدد من أصدقائي الفرنسيين المقيمين في القاهرة، وأبلغوني بوجود اشتباكات بين الجيش والبوليس في شارع الهرم، وفي ميدان الجيزة، ونصحوني بعدم مغادرة الشقة لامكانية تعرّض الأجانب المقيمين في مصر للاعتداء عليهم في الشوارع من قبل بعض الغوغاء. جلست إلى جوار المذياع وأنصتُّ باهتمام إلى ما وصفوه لاحقا باسم تمرّد قوات من الأمن المركزي.

في ذلك اليوم تعرّض فندق هوليداي إن الواقع في ميدان نادي الرماية

fb/mashro3pdf

بالقرب من أهرامات الجيزة لهجوم من طرف شباب كانوا يرتدون الزيّ العسكري، ثم أشعلوا فيه النيران، وقفزت سيّدة عجوز من الشرفة لتنقذ نفسها فسقطت ميّتة.

الا أنه كما يحدث دائما في مصر، فبمجرّد أن تبدأ حركة من حركات التمرّد في أي مكان، ينضم إليها على الفور الملايين من البشر المشحونين ضد الحكومة، وقد فاض بهم الكيل بسبب الواقع المهين الذي يعيشون فيه، والظلم البيّن الذي يتعرّضون له بشكل يومي. عندما غادرت شقتي لأول مرة بعد بضعة أيام كانت لا تزال هناك دبّابات محترقة في ميدان رمسيس، وهي من الأهداف التي يوجّه إليها الجماهير مشاعرها الغاضبة لأنها رمز السلطة العسكرية الغاشمة التي تحكم البلاد منذ حوالي ٣٥ عاما عبر ناصر والسادات ومبارك.

قيل لي إن هذه الهوجة التي دفعت بآلاف الجنود إلى الشوارع، وأدّت إلى تلك الاشتباكات الدمويّة بين الناس والعساكر، كانت تمثيلية متقنة الصنع والحبكة الروائية، من تدبير كبار تجّار الحشيش والأفيون، مع شركائهم من كبار رجال الإدارة المصرية، من رجال أعمال ووزراء (ونوّاب رؤساء سابقين؟)، لإحراج وزير الداخلية، أو يجوز لإحراج محافظ القاهرة، لست متأكدا من شخصيته، فأنا لم أعد أتذكر بحكم بلوغي هذا العام الذي أكتب فيه هذا الكلام سن الستين. لكنه كان هو الشخص، الذي كان في ذلك الوقت، قد أصدر قرارات، أدّت إلى تضييق الخناق عليهم. وفي داهية كام ألف كلب عسكري ومواطن مصري.

fb/mashro3pdf

(٧)

١٩٨٨. في أحد لقاءاتي التالية بالفساد الإداري المصري، كنا قد وصلنا إلى هضبة الهرم في الثانية والنصف، وكانت لدينا ثلاث زيارات تستغرق كل واحدة منها حوالي نصف ساعة، الأولى لهرم خوفو من الخارج، والثانية لمتحف مراكب الشمس المجاور لهرم خوفو من الداخل، والثالثة لمنطقة أبي الهول ومعبد الوادي المجاور له من الداخل. المفروض أنه مع الاستعجال الشديد يكون لكل زيارة من هذه الزيارات الثلاث نصف ساعة فقط لا غير. أنجز المرشد الزيارة الأولى في الوقت المتاح له، ثم اتجهنا إلى متحف مركب الشمس، حيث وصلنا تمام الساعة الثالثة.

هناك فوجئنا بوجود عدد ضخم من سيّارات الشرطة وقيادات الأمن، ثم قيل لنا إن رئيس الجمهورية التونسية (زين العابدين بن علي) يقوم بزيارة للمتحف، وأنه على وشك الانتهاء منها، وبالتالي وقفنا ننتظر انتهاءه الوشيك من الزيارة، في الدقائق المحدودة جدا المتروكة لهذه الزيارة في البرنامج.

انتظرنا ثلاثة أرباع الساعة حتى خرج (زين) بابتسامة عريضة على وجهه المرح الدائم الشباب، وقد رفع ذراعيه لتحيّة الجماهير الغفيرة الواقفة على الباب، الجماهير التي كانت تمثل تقريبا العالم أجمع، فهم من قارات مختلفة، ومن شعوب جنسيّات مختلفة، قادمين من

fb/mashro3pdf

أركان الأرض الأربعة، فكنت أرى أمريكان وناس من أوروبا واليابان. كل هؤلاء كانوا شهودا على ما حدث بعد ذلك في ذلك اليوم في ذلك المكان. (زين) لا ذنب عليه، فهو غير مسؤول عن تحديد موعد بداية ونهاية زيارته، وهو لا يعرف مواعيد غلق أبواب المتاحف القاهرية. بعد خروجه بدأنا نستعدّ للدخول، فوقفنا في طوابير أمام الباب.

فإذا بالسادة المسؤولين عن المتحف يغلقون الباب، ويقفون خارجه مدافعين عنه بأجسادهم، قائلين لنا بصوت جهوري واحد وفي جوقة واحدة

(لقد انتهت مواعيد الزيارة، وأنتم تعرفون أن المتحف يغلق الباب في الرابعة الا الربع)

كأنهم نسوا تماما ما حدث منذ لحظات قليلة، وكأننا كنا المتسبّبين في هذا التأخير. تهوّر بعض المرشدين على بعض حرس المتحف، وانطلقت ضحكات بعض السيّاح الأوروبيين معبّرين عن سخريّتهم من تخلّف هذه البلاد، والتقطوا صورا فوتوغرافية للتشابك بالأيدي.

المحصّلة النهائية لهذه الزيارة هي أنه لا يمكنك إطلاقا أن تصدّق أي مسؤول مصري، أو أن تثق في وعوده، فهو سيتخلّى عنك تماما في أول فرصة، وسيضرب بكلامه عرض الحائط، دون النظر إلى أيّة التزامات وظيفية.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الفصل الثالث

(١)

١٩٨٥. فوجئت بسحب الغبار تغطي سماء مدينة (كوم أومبو). عرفت السبب على الفور، لأني شاهدت عن بعد مداخن مصانع قصب السكر، التي يعمل بها عدد كبير من سكان المدينة، إلا أنهم من المؤكد يتعرضون، بسبب غبار هذه المصانع إلى الإصابة بالأمراض الصدرية فى سن مبكرة، ولا أحد يريد أن يصرف مليماً واحداً على مشروع تركيب فلاتر لمداخن المصانع، ولتذهب صحة السكان إلى الجحيم، حيث إن ذرات الغبار السوداء تملأ جو المدينة ليل نهار، عندما تكون المصانع فى حالة انتاج، وهذه الذرات يمكن رؤيتها بالعين المجردة فى هواء المدينة، وفى شرفات منازلها.

تركت المدينة خلفي، وقررت الذهاب مشيا على الأقدام إلى المعبد الصغير من العصر البطلمى، ويقع على بعد حوالي خمسة كيلومترات،

fb/mashro3pdf

وكان الجو لطيفا، إذ رغم أننا في بداية فصل الصيف، الا أن الساعة كانت بالكاد السابعة صباحا. كنت في مثل تلك الحالات أحاول أن أتخفى عن الأعين، وأن أحجب أصلي الأجنبي، وذلك بأن أضع تلفيعة حول رأسي، تخفي ملامحي الأجنبية، وبأن أقول (السلام عليكم) بصوت مرتفع كلما مرّرت إلى جوار جماعة من الرجال. كانت هذه الطريقة ناجحة بنسبة ٩٩٪. مع ملاحظة أخرى وهي أنني غالبا أثناء اقامتي في مصر، كنت أرتدي ملابس محليّة الصنع اشتريتها في مصر.

وصلت إلى المعبد في الثامنة والربع، نعم هذا هو معدّل سيري عندما لا أكون مرهقا ، أربعة كيلومترات في الساعة. فوجئت بعدد ضخم من المراكب السياحية واقفا في المرسى السياحي أمام المعبد. عشرات المراكب تتوقف فى نفس الوقت أمام هذا المعبد الصغير، عشرات المراكب التى تتحرك معاً، إما قادمة من أسوان فى اتجاه إدفو، أو قادمة من إدفو فى اتجاه أسوان. أنا لا أبالغ فى الأرقام فهناك حالياً حوالى ٣٠٠ مركب سياحى على النيل بين الأقصر وأسوان، يكون نصفها متوقفاً أمام هاتين المدينتين، ويكون نصفها الآخر باستمرار طوال الوقت فى رحلات نيلية بين الأقصر وأسوان. ظللت واقفا على التل المرتفع المجاور للمعبد أراقب ما يحدث. كنا في منتصف التسعينات ولم يكن الخوف الهيستيري من الارهاب قد وصل بعد إلى الحجم الذي سيصل إليه لاحقا.

fb/mashro3pdf

(٢)

كل هذه المراكب القادمة إلى هذا المعبد الصغير فى نفس الوقت، تطلب من كل مرشديها وتور ليدراتها وسياحها، القيام بالزيارة والانتهاء منها فى ساعة من الزمن! وهو ما بدا لي بوضوح هذه المرّة أثناء مراقبتي للموقع من تلّي المرتفع، إذ يندفع كل المرشدين، وخلف كل منهم مجموعته التي تتكوّن من عشرات السائحين، كأنهم في معركة يتقاتلون فيها من أجل البقاء على قيد الحياة، معركة الوصول إلى مدخل المعبد قبل الآخرين، حتى يتمكن المرشد من الانتهاء من الزيارة، والعودة إلى المركب في وقت مناسب، أي في أقل من ساعة، حتى يتمكن ربابنة هذه المراكب القباطنة الأبطال قادة المعركة، من استئناف الرحلة، كلٌ حسب اتجاهه. لم يعد المرشد هو سيّد الموقف، ولم يعد التور ليدر الأجنبي هو سيّد الموقف، فسيّد الموقف حاليا هو قبطان المركب.

والأدهى أنه عندما تتجه تلك الآلاف المؤلّفة من السياح بقيادة مرشديهم إلى حيث تدور رحى المعركة، ميدان القتال، مدخل المعبد، لا نجد على مدخل المعبد واقفا الا غفيرا واحدا (أو غفيرين)، تكون مهمة هذا الغفير (أو هذين الغفيرين) هى تمزيق تذاكر السياح، تذكرة تذكرة، وببطء شديد، حيث ينظر الغفير (أو الغفيران) فى تلك التذاكر تذكرة تذكرة، ليتأكد (أو ليتأكدا) من صحة هذه التذاكر، ومن عدم كونها مزيفة،

fb/mashro3pdf

في منظر يمثّل البلاهة مجسّمة، كأن لا أحد على الاطلاق من مئات أو آلاف الموظّفين، التابعين لوزارة السياحة، قد ترك مكتبه يوما واحدا، وجاء ليلاحظ سير العمل في موقع المعبد، ليدرك حجم البلاهة التي لا يراها غفر المعبد، لو حاول المرشدون الخونة تنبيههم اليها. وهكذا يضيع أغلب وقت الزيارة على هؤلاء السياح الغلابة، وقوفاً فى طوابير لا نهاية لها، ولا معنى لها.

هل يمكن لأحد أن يصدّق أن مدينة مصرية كان تعداد سكانها يقترب من الربع مليون نسمة في تسعينات القرن العشرين، لم تحصل على شبكة مجاري الا في أوائل القرن الواحد والعشرين؟ عندما وصلت إلى مصر سنة ١٩٨٣، وقمت بعمل أول رحلة نيلية، وزرت كوم أومبو على الأقدام، كنت أرى عربات البلدية واقفة أمام المنازل، وقد خرج منها الخرطوم الذي يقوم بشفط البقايا الآدمية المتراكمة في البيّارات، التي تسمّى أحيانا ترانشات tranche ، والكلمة بالفرنسية والانجليزية تعني الشرائح، والأوقع أن تنطق ترِنشات trench (بكسر الراء) وهي الكلمة التي تعني خنادق. لم تهتم الادارة المصرية بانشاء شبكة مجاري لهذه المدينة الا في الفترة بين ١٩٩٩ و٢٠٠٢، وهي سنواتي الأخيرة في مصر.

fb/mashro3pdf

(٣)

١٩٨٧. أثناء ابحارنا في المراكب كان يحدث أحيانا أن نمرّ على مسافة قريبة جدا من شاطئ النهر، مثلا على بعد عشرة أمتار أو أقل من ضفّة النيل، إذ يقول ربابنة هذه المراكب النيلية، أنهم يتجنّبون المرور في منتصف مجرى النهر، حيث توجد أحيانا حسب كلامهم بعض المرتفعات الرملية التي تختفي تحت الماء، ولا يمكن رؤيتها بالعين المجرّدة. وعندما تجادلهم يقولون إنهم يعرفون قاع النهر شبرا شبرا، كمعرفتهم بوجوه أطفالهم وزوجاتهم وراحات أياديهم. لأن هذه المرتفعات الأرضية في وسط النهر قد تؤدّي إلى احتكاك بطن المركب بقاع النيل، وقد حدث ذلك فعلا مرات عديدة، وكانت المسائل تستدعي في بعض الأحيان الاستعانة بصنادل لجرّ المركب بعيدا عن منطقة الشحط.

عند مرورنا إلى هذه الدرجة من القرب، حيث تقع أحيانا قرية أو مدينة صغيرة نمرّ أمامها مرورا سريعا، كان يحدث أحيانا أن يكون هناك بعض الشباب الواقف على أرصفة أو شواطئ تلك القرى أو المدن، وكان يحدث أحيانا كذلك، خاصة أثناء النهارات المشمسة، أن توجد فتيات شابات أجنبيّات فوق سطح المركب في ملابس الاستحمام، حيث إنه يوجد غالبا حمّام للسباحة على سطح كل مركب من المراكب السياحية، فكان يحدث بعد ذلك ببساطة، أن يخرج هؤلاء الشباب الواقفين على

fb/mashro3pdf

ضفاف النيل، أعضاءهم التناسلية من أسفل جلابيبهم أو سراويلهم، ويقومون بممارسة الاستمناء هكذا علنا في الهواء الطلق.

(٤)

الهويس هو قناة تقع في أحد طرفيْ جسم الخزان لتسمح بمرور السفن والبواخر، وذلك بأن تمرّ الباخرة من المستوى المنخفض للماء في أحد جانبيْ السدّ، إلى المستوى المرتفع للماء في الجانب الآخر من السدّ، أو العكس. تدخل السفينة إلى قناة الهويس، ويرتفع الماء أو ينخفض داخل القناة حسب اتجاه السفينة، حتى يصبح في مستوى الماء إلى الجهة الأخرى من السدّ. كنا في فصل الصيف والجو حار جدا، وكانت درجة الحرارة تتعدّى الأربعين درجة مئوية. كانت عملية مرور المركب بالهويس تستغرق في ذلك الوقت من أوائل التسعينات حوالي ثلاثة أرباع الساعة، إذ كانت عملية فتح الأبواب وغلقها في ذلك الوقت لا تزال تتمّ بالأيدي والأذرع البشرية.

أثناء عبورنا هويس قناطر أسيوط، حدث أن تجمّع على الفور عدد كبير من شباب المدينة الموجودين هناك خاصة خلال فصل الصيف، للاستمتاع ببعض النسمات القادمة من جهة النهر. بالإضافة إلى الاستمتاع بمشاهدة الفتيات النائمات، بملابس الاستحمام فوق الكراسي الشيزلونج على سطح المركب. بسبب وجود بعض رجال الشرطة لم يتمكن الشباب من ممارسة الاستمناء العلني المعتاد. الا أن

fb/mashro3pdf

المنظر على ما يبدو كان مستفزّا للشباب إلى درجة كبيرة.

القاعات المغلقة بالنوافذ الزجاجية العريضة داخل المركب، حيث بعض الخواجات يحتسون الخمور في جو مكيّف، ومنظر النجفة المعلّقة في سقف القاعة والتي كان بها مئات اللمبات. لا أدري ماذا حدث بالضبط، لكن جاءت من الصفوف الخلفية لجموع الشباب، قطعة حجر ارتطمت بزجاج احدى القاعات وكسرته. تطوّر الموقف بسرعة إلى حد أن وجد أحد رجال الشرطة نفسه مضطرا إلى اطلاق أعيرة نارية في الهواء. جرى الشباب المتجمّع فوق الرصيف بعيدا عن الشرطة. وجرت الفتيات بملابس الاستحمام إلى داخل المركب. بعد ذلك كانت المراكب السياحية تمرّ بالهويس أثناء الليل. ثم توقّفت تماما الرحلات النيلية في هذا الجزء من مصر.

(٥)

لم تكن هناك مشكلة، في عبور الأهوسة، عندما لم يكن على مياه النيل الا خمسة أو عشرة مراكب. أما عندما بدأت أنا العمل كتور ليدر في مصر سنة ١٩٨٣، كانت مشكلة عبور هويس إسنا على الأخصّ، قد أصبحت مشكلة مستعصية على الحل، حيث إن العدد الإجمالي للمراكب السياحية وقتها كان قد وصل إلى ١٠٠ مركب، فلو عرفنا أن عملية عبور الهويس تستغرق في إسنا، حوالي ساعة لكل باخرة، لأدركنا أنه إذا كانت كل باخرة تعبر الهويس في ذهابها من الأقصر إلى أسوان، ثم في عودتها

fb/mashro3pdf

من أسوان إلى الأقصر. ولو عرفنا أن هذا يحدث لكل البواخر، أي أن كل باخرة تحتاج إلى ساعتين أسبوعيا لعبور الهويس ذهابا وإيابا، وبالتالي فإن ١٠٠ باخرة تحتاج إلى ٢٠٠ ساعة أسبوعيا، لأدركنا حجم المشكلة لأنه لا يوجد في الأسبوع الواحد ٢٠٠ ساعة.

أمّا سنة ٢٠٠٢ عندما أصبح عدد بواخر السياحة النيلية حوالي ٣٠٠، لم يعد هناك الا حلّ واحد، وهو أن تتجنّب المراكب تماما عملية عبور الهويس، وهو الحل السحري الذي لا أعرف من هو العبقري صاحبه، لكن هذا الحل يستلزم أن تكون كل شركة سياحة مصرية متعاقدة مع باخرتين على الأقل، واحدة تنقل السياح من الأقصر إلى اسنا، ثم يغادرها السيّاح ليأخذوا المركب الأخرى من اسنا إلى أسوان، وبذلك تجنّبت البواخر مأساة عبور الهويس. مع ما في هذا الحل الثاني من اقلاق لراحة السيّاح الذين يضطرون لحزم أمتعتهم أكثر من مرة، بدلا من أن يكون حزم الأمتعة هو فقط مرة واحدة في نهاية الرحلة.

هذه السدود قامت في أماكن محدّدة طبقا لمواصفات دقيقة درسها باهتمام علماء السدود الانجليز. هذه الأماكن هي عند مدينة أسوان، ثم مدينة اسنا، ثم مدينة نجع حمّدي، ثم مدينة أسيوط. مع ملاحظة أن القناطر الخيرية الواقعة إلى الشمال من مدينة القاهرة، كانت قد تمّ تنفيذها في زمن إسماعيل باشا بخبرة فرنسية، وأن القناطر الموجودة في الدلتا (بين مدينتي زفتى وميت غمر مثلا) أقل حجما، ولا تأثير لها على السياحة النيلية. لم يكن هؤلاء العلماء الانجليز يفكّرون الا في تخزين

fb/mashro3pdf

المياه في مواسم الفيضانات الصيفية، لاستغلالها في الزراعة بقيّة العام، مع إمكانية استغلال قوة اندفاع تيّار الماء في توليد الكهرباء.

لكن لم يكن يخطر على بالهم قط أن قناطر إسنا على وجه الخصوص، يمكنها ذات يوم أن تكون عقبة كؤود في وجه حسن إدارة وتشغيل البواخر السياحية، عندما تصبح السياحة في مصر هي واحدة من أهم مصادر الدخل بداية منذ أوائل الثمانينات. لا أعرف على الاطلاق ما هو المانع الذي جعلهم يتخلّون عن فكرة إقامة قناطر إسنا إلى الشمال من الأقصر بدلا من شمال اسنا. لو كانوا وضعوها شمال الأقصر لكانوا قد جنّبوا الشركات السياحية إضاعة الوقت لعبور هويس اسنا.

(٦)

أتساءل عن قدرة المصريين غير العادية، على إصدار أكبر قدر ممكن من الضوضاء، بأقل الإمكانيات المتاحة. يعني ممكن مثلا لطفل صغير غير مدرك لما يفعله بحسن نيّة تام، أن يوقظ سكان شارع بأكمله، بمجرد قطعة خشب وجدها في الشارع، ثم قطعة نحاس وجدها هي الأخرى في الشارع، فأوحت إليه قريحته بفكرة أن يدق الخشب في النحاس. الناس لا يجدون مكانا يمشون عليه فوق الأرصفة، فيضطرون إلى المشي في الشارع، وتضطر السيارات إلى اطلاق أبواقها دون توقّف، وبالتالي فقد أغلب المصريين الجزء الأكبر من حاسة السمع.

واحدة من المشاكل التي تواجه السياحة النيلية في مصر، هي مشكلة

fb/mashro3pdf

إصرار المساجد المقامة على شواطئ النيل بالقرب من المراسي السياحية في كل مدن الصعيد، على إذاعة ليس فقط آذان الفجر الذي لا اعتراض لنا عليه، بل كذلك قراءة القرآن، وهو البثّ الإذاعي القادم من إذاعة القرآن الكريم من القاهرة، في ميكروفونات هذه المدن الهادئة نسبيا، مم يؤدّي إلى استيقاظ كل البشر النائمين، في تمام الساعة الثالثة صباحا، حتى نهاية التلاوة، ثم تأتي صلاة الفجر وهو ما يعني غالبا في الإجمالي ما بين ساعتين وثلاث ساعات. يحدث هذا في كل المدن دون استثناء، المنيا وملّوي وأسيوط وأبوتيج وسوهاج والبلينا وقنا والأقصر واسنا وادفو وكوم أومبو وأسوان.

فلو ضربنا عرض الحائط بالسيّاح الذين نؤرّق نومهم بهذه التلاوة المقدّسة، وهي شيء لا يفهمونه ولا يقدّرونه ولا يتذوّقونه، لأنهم يعتبرون هذا انتهاكا لحرّيّتهم الشخصية، الا أنهم يعتبرونه إزعاجا مؤقّتا، لن يستمر لأكثر من أسبوعين، فليست هناك رحلة نيلية تزيد مدّتها في أقصى تقدير على أسبوعين. لكن لا أحد يتساءل عن حقوق أقباط مصر، ومن يدافع عنهم فيما يتعلق بهذا الحق السليب، الذي هو حقّ أصيل من حقوق البشر، الحقّ في النوم العميق؟ ورغم أنني أعرف أن أغلب سكّان هذه المدن هم من المسلمين، فان نسبة لا تقل عن ٣٠ ٪ من السكّان في بعض هذه المدن مثل أسيوط والأقصر تدين بالمسيحية.

fb/mashro3pdf

(٧)

قال إن نجاسة الكلب هي نجاسة مغلّظة، بمعنى أن كل الحيوانات نجسة، وأنها لو لمست الانسان لوجب عليه إعادة وضوئه استعدادا للصلاة التالية، أما نجاسة الكلب فتستدعي الحكّ بالحجر سبع مرات. لم أفهم منه السبب الذي من أجله تمّ اعتبار الكلب أكثر نجاسة من القطّ أو من العنزة أو من الخروف. ثم أضاف شيئا أزعجني جدا. قال إن الكلب الأسود أكثر نجاسة من الكلب الأبيض. لم أفهم السبب في الإصرار على الإساءة إلى اللون الأسود؟

أقف على السطح العلوي للباخرة السياحية، الراسية عند المرسى السياحي لمدينة إدفو، ألاحظ أن على الرصيف المقابل هناك مجموعة من الصبيان يحيطون بكلب يحاصرونه ويقذفونه بالحجارة، والكلب يعوي بصوت مؤلم، كانوا وكأنّهم مكلّفون برجمه بالحجارة، كأنّهم مكلّفون بهذه المهمّة من قِبل جهة ما، دون أن يحاول أي رجل كبير يمرّ إلى جوارهم أن يمنعهم من ذلك. كان إذن هذا هو السبب في كثرة رؤيتي لكلاب جريحة في شوارع مصر. كان إذن هذا هو السبب في جري الكلاب المستمر بعيدا عن الناس وهي تعوي، حتى دون أن يلمسها أو يقترب منها أحد، كان إذن هذا هو السبب في نظرة الانكسار والذلّ التي تراها في عيون الكلاب المصرية بشكل عام.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الفصل الرابع

(١)

٢٠٠٢. ليست هناك أيّة عدالة إلهية على الاطلاق في توزيع المواهب على الناس. جلست أراقب الناس في مطار شارل ديجول رواسّي، ففوجئت بوجه أعرفه لزميلة مهنة قديمة، كانت تقريبا في نفس سنّي. كنت أجلس خلفها وبالتالي هي لا تراني. طوال معرفتي بها خلال ما لا يقل عن عشرة أعوام، لم أعرف أبدا إن كانت (شارلوت) مزدوجة الميول الجنسية. كل ما أعرفه هو أنها كانت تقبل بسهولة النوم مع مديري المراكب النيلية في صعيد مصر، أو حتى مع مساعدي المديرين أو حتى أحيانا كانت تنحدر إلى مرحلة قبول النوم مع مساعدي الطبّاخين على المراكب.

قيل لي إن مديري هذه المراكب السياحية ومرشديها منذ اليوم الأول في البرنامج السياحي للمجموعة السياحية المقيمة على مراكبهم لمدة أسبوع، أو أسبوعين، يقومون بتوزيع الفتيات الموجودات على

fb/mashro3pdf

المركب فيما بينهم، فيقول الواحد منهم (هذه لي) ويقول الآخر (وتلك لي) وهكذا، معتمدين غالبا على سذاجة الأجنبيات القادمات رأسا من أوروبا، وبشكل خاص خلال الأيام الأولى من الرحلة، قبل أن يلتفت انتباههنّ إلى وجود قدر كبير من انعدام الأمانة، بل أستطيع أن أقول الخسّة، في تصرّفات بعض المصريين. كان الاعتقاد السائد في السياحة المصرية هو أن كل الأجنبيات القادمات وحدهنّ إلى مصر هنّ فرائس سهلة، لأنهنّ قادمات خصّيصا من أجل الجنس.

(٢)

يكون توزيع الفتيات، على أطقم المراكب، غالبا حسب أهمية الشخص على المركب، وكذلك حسب قدرته على ما يسمّونه فيما بينهم في مصر (رفع رأس مصر عاليا). والرجال على المراكب بترتيب أهمّيتهم هم أولا المدير ثم ثانيا المرشد ثم ثالثا نائب المدير ثم رابعا البارمان وهكذا حتى نصل عاشرا إلى مساعد الطبّاخ.

يتمّ الإعلان عن برنامج السهرات على المركب، خلال الأيّام السبعة من أسبوع الرحلة، ويعلّق هذا البرنامج في مكان واضح في صالة المطعم، حيث يتناول الجميع الوجبات الثلاث، فيعرف كل سيّاح المركب، أن الليلة الأولى هي لسهرة راقصة، والثانية هي لحفلة تنكّرية، والثالثة هي لحفلة ألعاب، والرابعة هي لراقصة شرقية، والخامسة هي لعازف ربابة، والسادسة هي لفنون شعبية، والأخيرة هي حفلة الوداع.

fb/mashro3pdf

من المعتاد في حفلة الليلة الأولى الراقصة، أن يقوم المرشد، وهو الشخص الوحيد الذي يعرفه جيدا كل سيّاح المركب منذ اللحظة الأولى، بالاعلان عن ما كانوا يسمّونه في مصطلحات الحفلة الراقصة، النصف ساعة الأمريكاني، وعندما يسأله السيّاح الأوروبيون ببراءة ماذا يقصد، يقول إنه النصف ساعة التي لا تستطيع فيها أيّة سيّدة أو فتاة، أن ترفض طلب أي شخص للذهاب معه إلى ساحة الرقص (البيست).

كان هذا هو النظام المتعارف عليه في سنوات الازدهار السياحي منذ منتصف الثمانينات، عندما كانت المراكب شبه مكتملة العدد تقريبا طوال العام، ولم يبدأ في الاختفاء التدريجي على المراكب، الا منذ منتصف التسعينات، يجوز بسبب انتشار المتأسلمين حتى بين صفوف عمّال المراكب السياحية، بدليل ظهور اللحي وانتشارها. أصبح الملتحون لا يعملون الا كبحّارة أو في تنظيف الغرف، إذ كانوا يرفضون تماما العمل في المطاعم أو البارات، حتى لا يكونوا مضطرين إلى تقديم الخمور، وأصبح العمل في البارات أو المطاعم داخل المراكب مقتصرا على بطرس وجرجس.

كانت شارلوت أقل جمالا من المتوسّط المعتاد في الفتاة الفرنسية، أكثر ميلا إلى النحافة، وذات جسم رياضي بعضلات في الذراعين والساقين، وهو ما لا يتفّق بشكل عام مع الذوق المصري الذي يفضل الأجسام ذوات الاستدارات في الثديين والردفين وسمّانتي الساقين. كانت كذلك بشعر قصير وأنف مدبّب. هذه المرة شاهدت شارلوت

fb/mashro3pdf

وهي تحتضن فتاة أصغر منها سنّا وأجمل منها. كنت أراهما من على بعد بضعة صفوف من الكراسي، وكانت تدير رأسها نحو الفتاة كل بضع دقائق لتضع لها قبلة على خدّها.

(٣)

أعلنتُ ضمن البرنامج الترفيهي عن سهرة تنكّرية في نفس تلك الليلة. بسبب هويس اسنا تأخرنا في الوصول إلى إدفو، وبالتالي عندما جاء موعد الحفلة التنكّرية بعد العشاء، كان المركب لا يزال مبحرا في تلك المسافة الواقعة بين المدينتين، وهو ما خفّف من وقع الصدمة على المصريين الموجودين معنا على ظهر المركب من عمّال وبحّارة وسفرجية، إذ لو كان المركب راسيا على رصيف احدى المدن لانتشرت الفضيحة بين السفن.

طبعا من المعتاد في مثل هذه الحفلات، أن يقوم السيّاح باستئجار الجلاليب المصرية، أو أغطية الرأس العربية (العقال)، أو أحيانا كان من الممكن أن نجد على بعض المراكب، بازارات تؤجّر الأردية اليونانية الرومانية، على أساس أن مصر كانت مستعمرة لهاتين الامبراطوريتين لمدّة لا تقل عن ألف عام. الا أن مجموعة من زبائن المركب من السيّاح الفرنسيين، لا تقل عن خمسة عشر شخصا، من الأصدقاء القادمين معا في سياحة إلى مصر، قرّروا حضور السهرة بملابسهم الداخلية، أي بالكيلوت والسوتيان.

fb/mashro3pdf

ظهروا كلهم معا في لحظة واحدة على باب صالون المركب، وقد وضعوا أقنعة تغطي العينين والجبهة وجزء من الأنف. عندما شاهدتهم ذهبت اليهم فورا محتجّا. قالوا: إنت قلت تنكّرية وها نحن نخفي شخصيّاتنا فلا تستطيع أن تستدل علينا. كان ردّ الفعل التلقائي للشباب المصري القائم على العمل في صالون المركب، هو الانسحاب الجماعي من الصالون، لعلهم كانوا كلهم قد حصلوا على انتصابات فورية لأعضائهم، وخافوا من مغبّة بقائهم على هذا الوضع، الذي قد يعرّضهم لفقد وظائفهم.

ما حدث بعد ذلك هو أن عددا من السيّاح الآخرين غادروا الصالون، وهو طبعا تصرّف يدلّ على الاحتجاج، لكن ما منعنا أنا ومدير المركب من اتّخاذ أي إجراء، هو أن عدد واضعي الأقنعة كان يمثّل حوالي نصف عدد زبائن المركب، والزبون هو الملك كما يعلم الجميع، مما جعلنا أنا والمدير والمرشدَيْن المصريين، مضطرين إلى الاستمرار في السهرة، بل كنا مضطرين نحن الأربعة كذلك، إلى العمل في تقديم المشروبات بدلا من طقم الخدمة الغائب.

عندما شربوا كثيرا بدأت تصرّفاتهم تدلّ على أنهم مقبلون على مرحلة تالية من الجنون، إذ توقّعت أن يبدأوا حفل جنس جماعي، قد يكون حفلا ماجنا حتى بمقاييسي الفرنسية، لذلك فعندما خلعت أنثى ورجل فرنسيين القطع السفلية من ملابسهما الداخلية، سحبت المرشدَيْن من أيديهما، وأغلقت باب الصالون وبداخله المجانين بالمفتاح من الخارج.

fb/mashro3pdf

عندما عدت اليهم بعد ساعة، كانوا كلّهم قد تمدّدوا من الإرهاق على أرضيّة الصالون المفروشة بالسجّاد.

(٤)

١٩٨٧. نجلس في كافيه/ بار يقع في بهو الطابق الأرضي بفندق هيلتون الأقصر، الذي كان يحتفل بمرور عام واحد فقط لا غير على افتتاحه. كنا تقريبا في أبريل وكان الجو حارا، فجلسنا في الجوّ المكيّف لبهو الفندق، واقترحت عليهم أن نحتسي البيرة المصرية المثلّجة من ماركة النجمة (ستللا). كان معي عشرون شخصا من السيّاح الفرنسيين، بالإضافة إلى المرشد المصري أرمانيوس.

وافقوني جميعا وطلبنا ٢٢ زجاجة بيرة، فذهب النادل إلى ثلاجة البار وعاد بالزجاجات موضوعة في صندوق خشبي كبير، وبدأ في توزيعها علينا واحدا واحدا، الا أنه أثناء مروره بمقعد المرشد لم يضع أمامه زجاجة، فلفتت انتباه النادل إلى أنه لم يضع زجاجة أمام المرشد.

فقال (إحنا في رمضان ولذلك فالمصريون ممنوعون من احتساء الخمور خلال هذا الشهر)

كان هذا النادل يجيد الإنجليزية، لذلك كان حديثي معه بها، لكنها لم تكن لغة مفهومة بالنسبة لنصف عدد أفراد مجموعتي على الأقل، الذين بدأوا يتساءلون عمّا يحدث. لكني قبل أن أردّ عليهم

قلت (لكنه مسيحي وليس مسلما وهو لا يصوم وبالتالي فهو غير

fb/mashro3pdf

مكلّف بما يلتزم به المسلمون الصائمون، لذلك فأنا سآخذ زجاجتي بيرة بدلا من واحدة)

قال النادل (المرشد يعرف أن المنع عام سواء أكان المصري مسلما أو مسيحيا لذلك كما ترى فهو لم يتكلّم)

قلت (لكنك لا تستطيع منعي من طلب زجاجتي بيرة بدلا من واحدة)

قال (لكن بشرط أن تشرب أنت الزجاجتين ولا تعطِه واحدة منهما) وأشار إلى المرشد.

قلت (وهل ستقوم أنت بإبلاغ الشرطة بنفسك عن هذه الجريمة النكراء؟)

قال (ليس هناك أي داعٍ للابلاغ فهناك مراقب من الشرطة في كل فندق من فنادق المدينة وباراتها التي تقدّم خمورا، وذلك للقبض على أي مصري مسيحي تخوّل له نفسه الأمّارة بالسوء أن يشرب خمورا)

شرحت للمجموعة حقيقة الوضع، فعرضوا كلهم أن يغادروا المكان لأنهم لن يقبلوا أن يشربوا وحدهم البيرة في حين يظل المرشد - غير المسموح له بالشرب - مكتفيا بالفرجة. وفعلا انتقلنا إلى بار المركب السياحي الذي كنا نقيم فيه، وهو لم يكن يبعد عن الفندق الا بعشرات الأمتار، حيث إن مركبنا كان متعاقدا مع إدارة الهيلتون على استعمال مرسى الفندق.

هناك احتسينا جميعا زجاجات البيرة بما فينا المرشد، لأنه لا توجد

fb/mashro3pdf

رقابة من الشرطة على السفن لتطبيق هذا القانون، ولأن المركب مكان مغلق لن يتمكّن من دخوله أيّ متطرّف ديني، ولأن مدير المركب يدفع لمراقب الشرطة المكلّف بهذا المركب الإتاوات المطلوبة مقابل عدم التفتيش.

ليس في مصر أيّة حريّة شخصيّة على الاطلاق بل في الحقيقة إن مصر هو البلد الذي به مجموعة من القوانين الاستبدادية التي تطبّق فقط لا غير وبعنصرية شديدة على بعض الناس من الفقراء أو الأقليات الدينية، كما أنه البلد الذي تجد به قدرا هائلا من الفساد حيث إن كل شيء قابل للبيع وللشراء.

(٥)

(كان جمال عبد الناصر ناجحا فيما قام به في الخمسينات، الا أنه كان فاشلا في الستينات)

هكذا قال المرشد، ثمّ ذكر بعض نماذج الفشل، مثل تأميم الصناعة، وإنشاء القطاع العام الذي علّم مديري هذه المصانع الفساد، وعوّد عمّال المصانع على الكسل والتواكل، إذ لم يعد أحد يستطيع رفت عامل في مصنع مهما أهمل في أداء واجباته. ذكر كذلك هزيمة يونيو ١٩٦٧ أمام إسرائيل بسبب السياسة التي سادت في ذلك الوقت والتي يمكن اختصارها في جملة واحدة هي (أن أهل الثقة أفضل من أهل الخبرة).

مرّت كل هذه المقولات بسلام، ولم يعترض عليها أحد، إلى أن جاء

fb/mashro3pdf

ذكر موضوع تأميم قناة السويس عندما قال المرشد

(أمّم عبد الناصر القناة فعادت إلى أهلها)

انفجر فجأة عدد من زبائن المجموعة في صراخ مرتفع حتى أني انزعجت جدا، وقمت فورا من مكاني في البار الذي يشغل أحد أركان صالون المركب لأذهب باتجاههم. حتى مدير المركب ترك منصّة الاستقبال (الكاونتر) حيث كان يقف، وجاء إلى مدخل صالون المركب حيث مكان المحاضرة ليعرف السبب في هذه الضجة. قالوا:

(القناة لم تؤمّم بل صودرت)

كرروها كلهم عدة مرات بانفعال شديد، حتى لفتوا انتباه الجميع. ثم انفرد واحد منهم بالكلام. قال:

(حسب الأعراف الدولية المتّبعة في مثل هذه الحالات، ينبغي على الدولة التي تؤمّم مشروعا أو قطاعا كانت قد بيعت أسهمه من قبل في الأسواق العالمية إلى مستثمرين أجانب، أن تسدّد إلى هؤلاء المستثمرين الأجانب ثمن أسهمهم كاملا، الا أن عبد الناصر استولى على القناة دون تعويض المساهمين فيها، ففقد بالتالي على الفور المصداقية أمام رجال الاقتصاد العالمي، وكان هذا التأميم الجائر هو السبب في توقّف الاستثمارات الأجنبية في مصر حتى منتصف السبعينات).

قلت (لكن ما السبب في كل هذا الانفعال؟ إنها مسألة قابلة للنقاش الهادئ)

fb/mashro3pdf

قالوا، وكانوا ستة أشخاص، عرفنا فيما بعد أنهم ثلاثة أخوة مع زوجاتهم

(كان والدنا في الأربعينات، قد وضع كل ثروته في الشركة العالمية لقناة السويس البحرية، وكان مصدر دخلنا الوحيد بعد ذلك هو عائد هذه الأسهم، وبالتالي تحوّلنا بعد هذه المصادرة من أغنياء إلى فقراء)

fb/mashro3pdf

الفصل الخامس

(١)

٢٠٠٢. حصلت ذات مرة لصديقي أرمانيوس، المرشد المصري الأقصري، على تذكرة مخفّضة بثمن ٢٥٠ يورو، ذهابا وعودة (الأقصر/ باريس)، على طائرة شارتر فرنسية، عندما كان اليورو في بدايته، لا تتعدّى قيمته في السوق المصري أربعة جنيهات. وحيث إنه كانت لديه فيزا شنجن لمدّة عام، حصل عليها بفضل خطابات توصية من أصدقائه الفرنسيين في باريس، الذين كانوا يوما ما من بين زبائن مجموعاته، ذهبنا سويّا إلى مطار الأقصر، حيث وقف معي في طابور الطائرة الشارتر، فجاء أحد ضبّاط المطار وأخرجه من الصف، قائلا له

(ماذا تفعل هنا؟ ألا تعرف أنه ممنوع على المصريين استعمال الطائرة الشارتر إذا كانت هناك في نفس الوقت طائرة لمصر للطيران؟)

قال أرمانيوس (حضرة الضابط لم أكن أعرف، ثم إن تذكرة طائرة

fb/mashro3pdf

الشارتر بنصف ثمن تذكرة مصر للطيران، لماذا أدفع أكثر إذا كنت أستطيع أن أدفع أقلّ؟)

قال الضابط (تدفع أكثر لتدعم اقتصاد بلدك، أنت مرشد سياحي وتكسب كثيرا من المال، لماذا تبخل على بلدك بجزء من مكاسبك؟ لو فكّر كل المسافرين المصريين مثلك، لأفلست مصر للطيران، قل لي كيف يمكن لمصر للطيران أن تستمر؟)

ثم أضاف (إذهب الآن إلى كاونتر الشركة وأعد لهم تذكرة الشارتر، ثم إذهب إلى مكتب مصر للطيران واشترِ تذكرة على شركتك الوطنية، أو أنك لم تعد تشعر بالمشاعر الوطنية؟ يا أخي عيب عليك، شجّع شركة بلدك يا أخي)

هذا هو ما حدث فعلا، كنت أقف خلفه وابتسم، كأني لا أفهم كلام الضابط له. ثم ابتسم لي الضابط وقال (هالو مستر). ذهب أرمانيوس وفعل كما قال له الضابط، رضخ لأوامره. لا أعرف إن كانت الشركة الفرنسية قد أعادت ثمن التذكرة لاحقا لأرمانيوس، لكنه سافر في نفس اليوم إلى باريس، بعدي بساعة واحدة على طائرة مصر للطيران، وكنا قد تواعدنا على أن ينتظر أحدنا الآخر في مطار أورلي، لأنه كان من المفروض أن أستضيفه عندي لبضعة أيام.

fb/mashro3pdf

(٢)

كان يحلو له بين الحين والآخر أن أنتقد مصر والمصريين أمامه، وكنت أعتبر رغبته في الاستماع إلى النقد الجارح، كأنّه شكل من أشكال العلاقة السادومازوخيّة، التي يستمتع فيها المازوخيّون بتعذيب الذات. كنت أحيانا أرسل رأيي إليه كتابةً، في خطاب أسلّمه إليه باليد، أو أرسله إليه بالبريد، حتى لا تحدث مواجهات عنيفة واشتباكات بيني وبينه. بعد أن ظننت أنه مازوخي يحلو له أن أسيء إلى شعبه، اعتقدت لبعض الوقت أنه كما لو كان يمارس طقس التطهّر (كاتارثيس). في ذلك اليوم المشار إليه أعلاه، كتبت إليه هذه الرسالة التي أعطيته إيّاها عندما تقابلنا في مطار أورلي حسب الاتفاق.

(هذا الشعب المصري ينقسم بوضوح إلى طبقتين، طبقة من العبيد، وطبقة أخرى من الأسياد، مثلما كان الحال في أوروبا القرون الوسطى، وعندما يُصدر الأسياد القوانين الجائرة، فلا مفرّ للعبيد من إطاعتها. أنا في أوروبا في أوائل القرن الواحد والعشرين، أستطيع أن أطير من أي بلد إلى أي بلد، على أي شركة طيران أختارها، لأن المفاضلة تكون على أساس جودة الخدمة، ورخص السعر، وبالتالي فأنا أختار الأجود خدمة، والأرخص سعرا.

fb/mashro3pdf

أما في مصر فإن المصريين - الفقراء نسبيّا مقارنة بالفرنسيين - مجبرون على استعمال مصر للطيران. هذا هو السبب في رداءة الخدمة في مصر للطيران وتدهورها عاما بعد عام، فهم يضمنون زبائنهم، فالمصريون مجبرون على استعمال طائراتهم، حتى لو قدّموا لهم الخراء البشري ليطفحوه كوجبة غذائية، وحتى لو صفع المضيفون الركّاب على أقفيتهم أثناء مرورهم في ممرّات الطائرة.

شاهدت خلال واحدة من رحلاتي على مصر للطيران بين الأقصر والقاهرة، رجلا قصيرا أصلع الرأس بشارب كثيف وبعينين ماكرتين، يرتدي بذلة سوداء وكرافات، يمشي في الممر الأوسط للطائرة، التي كنّا فيها ذات ليلة. ينحني لتحية الركّاب، ثم يعرّفهم بنفسه بابتسامة صفراء عريضة على شفتيه كأي جنتلمان، ويسألهم عن رأيهم في مستوى أداء مصر للطيران، ويشكرهم ثم يغادر الصف بابتسامة صفراء جديدة لينتقل إلى الصفّ الذي يليه، وهكذا حتى وصل إلى الصفّ الذي كنت أجلس فيه.

عرفت منه أنه رئيس شركة مصر للطيران، وهو بهذه الصفة يريد أن يعرف مني بصفتي تورليدر أجنبي كما ذكرت له، عن ما هي - في وجهة نظري - أهم عيوب الشركة، فشكرته على الاهتمام وذكرت له مسألة تأخير المواعيد بشكل مستمر. شكرني وانتقل إلى الصف التالي، دون أن

fb/mashro3pdf

يهتم حتى بمجرّد تحيّة المرشد المصري الذي كان جالسا إلى جواري، الذي لم يفاجأ بهذا التصرف من طرف رئيس الشركة، وأوضح لي أن هذا هو المعتاد من المسؤولين المصريين، الاهتمام فقط بالأجانب أما المصريون فهم عبيد احساناتهم، مثل العبارات التي كان الخديوي توفيق قد استعملها في وصف المصريين قبل ١٠٠ عام أو أكثر).

عرفت فيما بعد أن الشخص الموصوف في الرسالة أعلاه هو فهيم ريّان، هكذا نطق أرمانيوس اسمه أمامي، وعرفت كذلك أنه كان مشهورا بكونه صديقا قديما لحسني مبارك.

(٣)

من متاعب مهنة المرشد السياحى والتور ليدر، الاضطرار إلى الاستيقاظ الساعة ٣ ص، فى يوم السفر إلى الصعيد، لمغادرة المنزل الساعة ٤ ص، للوصول إلى مطار القاهرة ٤,٣٠ ص، وذلك لأن الطائرة ينبغى أن تقلع الساعة ٦ ص. تصل إلى المطار فى الوقت المحدد، ويكون زبائنك من عملاء شركة السياحة العالمية، سيّاح مصر، قد سبقوك إلى المطار بأوتوبيس من الفندق. فإذا كان من المفروض أن تقلع الطائرة في الساعة ٦ ص، الا أن الذي يحدث فعلا هو أنكم تبقون فى صالة الترانزيت (الانتظار) ساعة وساعتين وثلاث ساعات وأربع ساعات وأحياناً خمس

fb/mashro3pdf

ساعات وقد يصل الأمر إلى ست ساعات، ولا أحد يسأل فيكم، ولا أحد ينادى على ركاب طائرتكم.

هم فى مطار القاهرة، أو فى شركة مصر للطيران لا يعرفون أن السياح يكونون فى تلك الحالات مرهقين جداً، ليس فقط بسبب الاستيقاظ المبكر، ولكن أيضاً بسبب الزيارات المكثفة التى يقومون بها خلال يومين أو ثلاثة أيام فى القاهرة، بالإضافة إلى حرارة الجو المرتفعة خصوصاً خلال شهور الصيف. وقد يكون فى المجموعة أحياناً أطفال أو شيوخ، يجوعون أو يعطشون أو يتعبون، ولا يفكر أى مسئول على الاطلاق فى تقديم أى شئ إليك وإليهم (إلا فى النادر).

لكن المشكلة الحقيقية هى فى عدم قدرتك كمرشد سياحى أو كتور ليدر، على تفسير التأخير، فكل السيّاح من أفراد مجموعتك السياحيّة، يأتون إليك فرادى أو جماعات يسألونك متى سنطير؟ فتقوم بدورك لتسأل أى شخص يرتدى زياً رسمياً (يونيفورم مصر للطيران) فيتهربون منك، أو ينكرون أن تكون لهم أى صلة بالمطار أو بمصر للطيران، هم يحاولون إيهامك بأنهم فقط يحبّون ارتداء ملابس زرقاء متشابهة.

فتبدأ فى الدوران فى حلقات مفرغة، فتسمع أولاً أن سبب التأخير هو الشبورة الصباحية، وتذهب لتخبر مجموعتك بذلك، وعندما ينقشع

fb/mashro3pdf

الضباب وتغمر الشمس المكان، ينظرون إليك، فتقوم من مكانك من جديد لتبحث عن يونيفورم آخر فيقال لك إن السبب هو وجود مسئول كبير فى المطار، وأننا يجب أن ننتظر أولاً إقلاع طائرته، فتذهب لتخبر مجموعتك بذلك. وعندما تمر الساعات تسمع أن السبب هو عطل فى الطائرة، وأنهم يتخذون الإجراءات اللازمة لأن تستبدل بها واحدة أخرى، ثم تخبرك مجموعتك بأنهم قد سمعوا من المجموعات الأخرى التى تنتظر معهم أن السبب هو عدم حضور الطيار المسئول عن هذه الرحلة حتى الآن، ولا تعرف أبداً أين الحقيقة.

نصل إلى الأقصر متأخرين عشر ساعات، فيرتبك برنامج الزيارات تماماً، فنحن ليس لدينا فى الأقصر إلاّ مدة محدودة فى الغالب تكون يوماً ونصف يوم، فإذا ضاع اليوم الأول دون زيارة الكرنك والأقصر، ثم قمنا بعمل زيارات البر الغربى (وادي ملوك/ وادي ملكات/ دير بحري/ مدينة هابو) فى صباح اليوم الثانى، غالباً ما يرفع السياح قضايا ضد شركة السياحة عندما يعودون إلى بلادهم، يطلبون فيها تعويضات عن الزيارات التي لم تنفذ من برنامجهم، وتنكر مصر للطيران أن تكون عليها أيّة مسئولية قضائية، وتدفع شركات السياحة تعويضات ضخمة للسياح أدّت في بعض الحالات إلى إفلاس الشركات المصرية، كل ذلك بسبب إهمال شركة مصر للطيران، وعدم تنفيذ البرنامج المتفق عليه.

fb/mashro3pdf

(٤)

عندما تصل إلى مطار أبو سمبل بالطائرة، قادماً إليها غالباً من أسوان، تفاجأ بأن هناك ثلاث أو أربع طائرات أخرى تصل معك فى نفس اللحظة، وهذا معناه وجود حوالى ألف سائح زائر للمكان فى نفس الوقت! هذا دليل أكيد على انعدام التخطيط، فإن أى شخص لديه حد أدنى من المعرفة بالمكان، يدرك أنه لا يمكن بأى حال من الأحوال، زيارة هذا المعبد الضيق من الداخل، لأكثر من مائتى زائر فى الوقت الواحد.

ثم عندما تخرج من المطار، ببطء شديد بسبب التزاحم على باب الخروج الوحيد الضيق، فإنك تتعمد أن تتأخر قليلاً، حيث إنك تحترم نفسك وتحترم كذلك المجموعة السياحية التى معك، وحتى لا يضطر زبائنك سياح مصر، إلى التزاحم بالأكتاف للخروج من هذا الباب الضيق. وهكذا تكون آخر من يخرج من المطار وتكتشف عدم وجود أى سيارات لنقل سياحك إلى المعبد، وذلك بسبب عدم وجود سيارات أتوبيس كافية لنقل كل المسافرين على هذه الطائرات. صدق من قال إن المسؤولين المصريين يقومون أحيانا بمعاملة سيّاح مصر كما لو كانوا مواطنين مصريين، ليس لهم الحق في الشكوى مهما أساءت السلطات المصرية المصونة معاملتهم.

fb/mashro3pdf

ثم إنك تقابل موظفا من موظفى المطار، يقف على الباب، لينبه على كل المرشدين والتورليدرات بضرورة العودة إلى المطار فى موعد أقصاه ساعة ونصف من الآن! حيث إن ميعاد الطائرة التى ستقلع عائدة بك إلى أسوان أنت ومجموعتك هو بعد ساعة ونصف! فتحاول أن تلفت انتباهه إلى أنك مضطر إلى البقاء أمام المطار مدة لا يعلم مداها إلا الله، وتقول له كذلك أنك لا تعلم بدقة ميعاد عودة الأتوبيس بك من المعبد إلى المطار، فيرد عليك بكلمة واحدة هى (هو كده).

عند وصولك إلى المعبد تفاجأ بوجود بوابات حديدية جديدة كان قد تم تركيبها خلال الشهر السابق، وتفاجأ كذلك بوجود طابور طويل جداً يمر منه الزوار واحداً واحداً، حيث يتم تفتيشهم تفتيشاً دقيقاً، خوفاً من أن يكون أحدهم حاملاً لأية أسلحة، وتتساءل بينك وبين نفسك (ما الداعى لتفتيش نفس السياح عدة مرات عند إقلاع الطائرة من أسوان، ثم عند هبوطها فى أبو سمبل؟) مما يفقدك نصف ساعة أخرى.

ثم هناك الطريق الطويل الذى تقطعه مع سياحك على الأقدام، من بوابة دخول منطقة المعبد إلى أمام واجهة المعبد، حيث تقف مع مجموعتك السياحية لتقول لهم

(ليس أمامنا الآن إلا نصف ساعة لزيارة المعبد)

يرد عليك أحدهم قائلاً

fb/mashro3pdf

(ما هذا التخريف؟ هل دفعنا حوالى ما يساوى ألف جنيه مصرى لنشاهد المعبد خلال نصف ساعة؟)

تحاول إقناعه بأن هذا ليس ذنبك، إنما هو ذنب مصر للطيران، فلا يقتنع.

تكون النتيجة هى أن بعض سياحك عند العودة إلى المطار يتخلف عن العودة معك، وبذلك يخلق لك مشكلة حين لا تجده وسط مجموعتك، فتطير طائرتك عائدة بغيرك إلى أسوان، وتنتظر أنت فى المطار ثلاث أو أربع ساعات، حتى يحين موعد عودتك بمجموعتك على طائرة أخرى. تعتقد سلطات المطار، وتعتقد شركة مصر للطيران، أنها بذلك تكون قد انتقمت منك، وأغاظتك أنت المرشد السياحى أو التور ليدر الذى لا يعرف شغله، وهم لا يدركون أنهم إنما يغيظون السياح، ويفقدونهم متعة الزيارة، ويضيّعون عليهم ساعات طويلة من الانتظار فى صالات المطارات.

(٥)

الظلم هو العملة السائدة في العالم منذ أقدم العصور وحتى وقتنا الحالي. لا أستطيع أن أنسى منظر العساكر المصريين وهم يضربون الأطفال القرويين على أبدانهم الصغيرة المرتجفّة، في عز شتاء مصر البارد، في قرى ونجوع الوجه القبلي، بالخيزرانات التي تلسوع الأجساد

fb/mashro3pdf

الصغيرة المرهقة الجائعة، وتترك على أبدانهم علامات في شكل خطوط طولية حمراء سرعان ما تتحوّل إلى اللون الأزرق. لماذا كل هذا التعذيب؟ لأن الأطفال أثناء خروجهم الواحدة ظهرا من مدرستهم الصغيرة في قرية العرابة المدفونة بمركز البلينا بسوهاج، بالقرب من معبد الملك سيتي الأول بأبيدوس، كانوا قد توقّفوا لمشاهدة خروج الخواجات من المعبد بعد انتهاء زيارتهم له.

عندما توقّف الخواجات أنفسهم لاستطلاع ماذا يريد هؤلاء الأطفال المساكين منهم، تقدّم أحد الأطفال الشجعان، ومدّ يده مفرودة إلى الخواجة، ثم أعادها مضمومة الأصابع تجاه فمه، مما فهم منه الخواجة بوضوح أن هذا الطفل جائع، وأنه يريد من الرجل الفرنسي أن يعطيه مالا ليذهب هذا الصبي يشتري به طعاما يأكله. وبمجرّد ما استعدّ الخواجة لاخراج بعض القطع المعدنية من جيبه، هجم عليه عشرة أطفال مرّة واحدة، من تلاميذ نفس المدرسة تقريبا، يتجاذبون أطراف ملابسه فيما بينهم، فاندفع نحوهم ثلاثة من رجال الشرطة بملابسهم الرسمية يلسوعون أبدانهم.

الغريب هو أن هذا الطفل (حوالي عشرة أعوام) كان يعلق حقيبة قماشية على كتفه تبدو منها أطراف كتبه وكرّاساته، إذن من الواضح أنه فعلا تلميذ. لكن الأسئلة كثيرة: كيف في هذا البرد الشتائي المعروف في الأماكن القريبة من الصحراء يتركه والداه يخرج من المنزل حافيا وليس على جسده الا هذا الجلباب الخفيف؟ الجواب الوحيد هو أن أهله ليس

fb/mashro3pdf

في مقدورهم فعلا أن يشتروا له بعض الملابس الثقيلة.

(٦)

١٩٨٨. قدرٌ أحمق الخطى، سحقت هامتي خطاه (قالها الشاعر الفرنسي لامارتين). كنت أقف على ظهر المركب (جيزة)، قبيل الوصول إلى مرسى مدينة إدفو السياحي، في ظهر يوم حار من أيام صيف صعيد مصر. كانت الساعة الثانية عشرة ظهرا وكنت أستعد للنزول إلى بطن المركب لتناول وجبة الغذاء مع سيّاح مجموعتي في مطعم المركب، ذلك حسب البرنامج المعدّ سلفا على أن نذهب في الثانية ظهرا لزيارة معبد المدينة.

فجأة ودون أي إنذار من القَدَر ودون أيّة مؤشّرات سابقة تدلّ على الكارثة التي توشك على الوقوع، كانت المركب السياحي (غزالة) التي تسبقنا ببضعة عشرات من الأمتار لا أكثر، قد دخلت في دوّامة مائية شديدة القوّة، لا أعرف من أين جاءت، فصارت المركب التي ترتفع أربعة طوابق فوق الأرضي، تدور في دوائر كاملة ببطء أولا ثم في سرعة تزايدت نسبيا مع كل دورة.

بدأ ركّابها يصعدون إلى سطحها ويصرخون، ثم بدأوا يقفزون منها إلى ماء النيل، وذلك قبل أن تنقلب على جنبها بعد دورتها الخامسة أو السادسة حول نفسها، لتسقط فوق رؤوس عدد من الناس الذي قفزوا في النيل من هذه الناحية، في منظر قريب الشبه من المنظر الذي سنشاهده

fb/mashro3pdf

لاحقا في الفيلم السينمائي الشهير عن غرق المركب تايتانيك في شمال المحيط الأطلسي سنة ١٩١٢. تبدأ (غزالة) بعد ذلك في الانغمار التدريجي في مياه النيل، لتصبح بعد أقل من خمس دقائق فقط لا غير من بداية دخولها في الدوّامة المائية المفاجئة، غارقة تماما في اللجّة.

جاءت عشرات المراكب الصغيرة التي كانت راسية على الشط لصيّادين محليين، ثم جاءت قوارب شرطة النجدة وهي تطلق سرينة الانقاذ، وقد نجحوا جميعا في إنقاذ نصف عدد الركّاب. الا أن كل الذين بقوا داخل المركب نياما في كبائنهم، أو داخل حمّامات كبائنهم، ماتوا غرقا في مياه النيل. وصل العدد الإجمالي من الضحايا إلى ما يزيد عن مائة.

وكما يحدث عادة في الحياة، يستأنف الناس الآخرون أمور حياتهم بطبيعية تامة، كما لو أن كل شيء على ما يرام، فبعد أن تأخرنا عن موعد الغذاء نصف ساعة، اضطررنا نحن التوريليدرات الأجانب مع المرشدين المحليين إلى المرور بالناس الواقفين يتفرّجون على الكارثة، واحدا واحدا، لتذكيرهم بموعد وجبة الغذاء، وبموعد زيارة معبد إدفو بعد الوجبة مباشرة، مع وعد الناس بإمكانية استئناف الفرجة الدرامية العنيفة الساعة الخامسة مساء بعد العودة من زيارة المعبد، وأثناء احتساء شاي الساعة الخامسة مساء على الصن دك (سطح المركب).

تولّد لديّ انطباع كأن بعض سيّاح مركبنا كانوا يتعاملون مع هذه المأساة بقدر من الاستخفاف، كما لو كانوا يتخيّلون أنها فقرة في

fb/mashro3pdf

برنامجهم السياحي أضيفت إليها بعض التوابل الدرامية العنيفة. استمرّت حتى بعد منتصف الليل عمليات انتشال الجثث بواسطة الضفادع البشرية. كذلك قامت سيّارات الإسعاف بنقل المصابين الذين وقعت عليهم أجزاء من المركب إلى المستشفيات، ونقل الجثث إلى ثلاجات المشرحة الأقرب جغرافيا، لحين وصول البعثات الأجنبية التي ستقوم بنقل الأجانب الناجين من الحادثة، والمصابين والجثث إلى بلادهم، وكان أغلب ركّاب السفينة المنكوبة من الايطاليين.

لم يتم أبدا بعد ذلك انتشال المركب (غزالة) الذي لا يزال يظهر بعضه أسفل ثلاثة أو أربعة أمتار من الماء، في مواسم التحاريق، أي في أشهر ديسمبر ويناير، وتحاول المراكب كلها أن تتخذ مجرى ملاحيا بعيدا عن موقع الكارثة. لم أكن أعرف أن عمق مياه النيل في بعض المواقع هنا في هذه المنطقة الجغرافية قد يصل إلى عشرين مترا. كان يقال لنا في معاهد السياحة الفرنسية، وفي كتب الأدلة السياحية أنه نهر ضحل، صحيح أنه عريض المجرى لكنه قليل العمق.

fb/mashro3pdf

الفصل السادس

(١)

لم أكن أعرف على الاطلاق أن لي أختا انجليزية، ولم أدرك الا بعد لقائنا الأول كم هي انسانة عزيزة عليّ رغم أنها أخت غير شقيقة. بعد أن رأيتها مع زوجها وأولادها تمنيّت لو أنني كنت قد عشت حياة طبيعية. أي أن أتزوّج وأنجب على الأقل طفلين ولدا وبنتا. قبل أن أذهب لزيارة أختي لأول مرة كنت متشكّكا جدا في حقيقة مشاعرها نحوي، كنت أعتقد أنها ستكون باردة ومتحفّظة كعادة الانجليز مع الغرباء بشكل عام، خاصة مع أفراد الشعوب التي كان بينها وبينهم عداوات كالشعبين الفرنسي والألماني. الا أنني لحسن الحظ كنت مخطئا في ظنّي واعتقادي.

منذ وعيت وأدركت من أنا ومن هما والداي، لاحظت أن والدي كان معتادا على الذهاب إلى انجلترا ولو مرة واحدة على الأقل كل عام. أدركت كذلك منذ طفولتي المبكّرة أن والدتي كانت تعرف أنه كانت لديه سابقا زوجة انجليزية، وأنه كان قد انفصل عنها بالطلاق قبل أن

fb/mashro3pdf

يتزوّج أمي. الا أن ما كان يثير شكوك أمي هو هذا الذهاب المتكرر إلى إنجلترا ولو مرة واحدة في العام.

كان يذهب خلال مواسم الاجازات المدرسية في عيد الفصح غالبا الذي يأتي في بداية الربيع. ثم أحيل أبي إلى التقاعد في الخامسة والستين من عمره، ثم حدث أن أصيب بكسر مضاعف في ساقيه الاثنين نتيجة سقوطه على السلالم في إحدى محطّات المترو الباريسية. عندها ذكر لي أنا وحدي دون أمي أو أخي، حقيقة أن له ابنة من زوجته الأولى، وأنه كان معتادا على الذهاب اليها. ثم كلّفني بأن أحلّ محلّه في هذه الزيارة السنوية.

حتى ذلك العام الذي ذهبت فيه إلى إنجلترا لزيارة أختي لأول مرة، لم يكن القطار السريع (اليورو ستار) قد اخترع بعد، بل حتى النفق الذي سيبدأون في حفره لاحقا عبر مضيق المانش، الذي يسمّيه الانجليز (القناة الانجليزية)، كان مجرّد فكرة نظرية تراود خيال مجموعة من الحالمين. كنت قادما من الجنوب حيث كنت أقضي وقتا من اجازتي السنوية في البحث عن أوريلي.

أخذت القطار إلى باريس، ثم بالمترو ذهبت إلى محطّة شمال باريس، ومنها أخذت قطارا إلى كاليه، الذي كان يصل بالمسافرين إلى محطّة عند شاطئ البحر، فيها يغادر المسافرون القطار، ويأخذون الباخرة الضخمة التي كانت تستوعب مئات الركّاب وكذلك عشرات السيّارات، وكانوا يسمّونها الهوفركرافت، وكانت تقطع مسافة الأربعين كيلومترا بين كاليه ودوفر أو بين كاليه وفولك ستون في أقل من ساعة. أعتقد أن هذا الخط

fb/mashro3pdf

الملاحي كان يقوم بتشغيل عشرين هوفركرافت على الأقل، حيث إنه كانت هناك رحلة كل ساعة من والى كل من هذه المدن الثلاث.

(٢)

جاءت كريستينا لتستقبلني على رصيف محطة القطار، وقد عرفتني على الفور رغم أنها المرة الأولى التي نلتقي فيها. قالت (أنت تشبه والدنا عندما كان في مثل سنّك، تماما إلى درجة مذهلة)، وكان حبّها لوالدنا هو أول خطوة في حبّها لي. تقريبا لأول مرة في حياتي أشعر بمعنى الأسرة. المعنى الذي لم أدركه اطلاقا مع أبي وأمي وأخي.

أختي كانت شيئا آخر تماما. منتهى جمال النفس والهدوء والسكينة وحب البشر، رغم أنها لم تكن متديّنة، بمعنى أن هذه المشاعر لم تكن ذات أصول دينية، بل محبّة خالصة للبشر وللحيوانات والطيور والنباتات والزهور. أمّها كانت لا تزال تعيش معها في نفس المنزل الذي استأجرته الأم قبل حوالي ثلاثين عاما، ثم اتفقتا مع صاحبه على شرائه، فأصبح ملكا لهما. وهو منزل تقليدي بحديقة خلفية صغيرة، لكن الشيء الملفت للانتباه بمجرّد الدخول هو أن جميع حوائط حجرات المنزل تغطّيها عشرات الصور الفوتوغرافية باللونين الأبيض والأسود.

أختي ورثت عن أمها مهنة التصوير الفوتوغرافي، لرابع جيل في العائلة، مع أن الوقت كان قد قارب على الانتهاء بالنسبة للتصوير الضوئي، فكل المؤشرات كانت تؤكّد على بداية عصر جديد هو عصر التصوير الرقمي.

fb/mashro3pdf

كانت الجدّة قد طبعت سلسلة من الكتب المصوّرة التي تؤرّخ لانجلترا منذ منتصف القرن التاسع عشر، وهو الزمن الذي بدأت فيه جدّة الجدّة في الاهتمام بالتصوير سنوات قليلة بعد اختراعه في أوروبا.

الجزء الأول من هذه السلسلة من الكتب يحمل عنوانا مثيرا. لم أكن أبدا قادرا على إتقان الإنجليزية، التي لم يهتم أبي بتعليمي إيّاها، كما كان متوقّعا من أب انجليزي الجنسية، لكنه تركني أتعلّمها في المدارس الحكومية الفرنسية، مع غيري من تلاميذ الطبقة المتوسّطة. كان عنوان الكتاب هو A Cockney Camera. سألتها عن معنى هذه الكلمة. قالت (هي لهجة أهل لندن خاصة الأحياء الفقيرة في شرق لندن). فهمت أن الكتاب هو للصور المأخوذة في الشوارع لأهل لندن الفقراء في ذلك الوقت المبكّر من زمن الإمبراطورية البريطانية التي لم تكن تغرب عنها الشمس. صورة الغلاف كانت لمهنة منتشرة جدا في فرنسا حتى سنوات قليلة هي مهنة اصلاح النوافذ الزجاجية أو تغيير النوافذ المكسورة بأخرى سليمة بالفرنسية vitrier وبالانجليزية window – mender.

(٣)

عدت إلى زيارة أختي عددا من المرات، وفي كل مرة كانت تأخذني بسيارتها إلى كل المدن القريبة لنزورها معا، حيث إننا كنا في منطقة الميدلاند وهي وسط بين ليفربول ومانشستر ونوتينجهام وبيرمنجهام. طبعا في ليفربول قصدنا أولا الجاراج الذي تركنا فيه السيّارة ثم ذهبنا

fb/mashro3pdf

إلى Albert Dock، وهي أحواض السفن التي تحوّلت حاليا إلى أماكن عرض سفن القراصنة القديمة التي تحوّلت إلى مقاهٍ ومطاعم، تناولنا في أحدها وجبة غذاء انجليزية تقليدية من السمك والبطاطس مع البيرة السوداء Lager. فيما بعد جرّبت صنفا آخر من البيرة الانجليزية وأصبح صنفي المفضّل وهو بيرة الوهج الذهبي Golden glow.

زرنا متحفا يروي قصة آلهة المدينة الأربعة أصحاب الإيقاع الذين أعادوا إلى الإمبراطورية ثقتها في نفسها في وقت كانت هي فيه أحوج ما تكون اليه، إذ كانت قد فقدت خلال حوالي عشر سنوات كل مستعمراتها السابقة تقريبا. البيتلز آلهة الروك. ثم أخذنا الباص السياحي الذي يدور بين أهم المواقع السياحية وزرنا الفندق الذي يحمل اسم (فندق ليالي الأيام الصعبة) Hard Days Nights Hotel، واحدة من أغانيهم الشهيرة، والى جواره حارة صغيرة اسمها شارع ماتيو تؤدّي إلى النايت كلوب Cavern الذي عملوا فيه لمدة ٢٠٠ ليلة دون أن يلتفت اليهم أحد تقريبا، ليدرك أنهم الذين سيغيّرون وجه الموسيقى لمدة نصف قرن.

في المتحف وجدت فترينات عرض بها بعض صور البيتلز، وبعض المقالات عنهم في بداياتهم، معلّقة داخل الفترينات، في التعليقات الموجودة على بعض الصور وفي المقالات عنهم، ورد اسم تكرّر عدّة مرات، هو تيموثي ليري، وهو اسم كان قد تردّد في بعض أغنيات نهايات الستّينات، لفرق البيتلز والمودي بلوز وغيرهما. قرأت أنه كان يعمل أستاذا للفلسفة في جامعة أمريكية، وبدأ في الكتابة عن سحر عقار

fb/mashro3pdf

الهلوسة، المعروف اختصارا باسم إل إس دي LSD، الذي كان قد اخترع في ذلك الوقت، وهام به الشباب.

ألف تيموثي عدّة كتب في دعوة الناس إلى الهروب من واقع الحياة الأمريكي المؤلم، بالتحليق فوق السحاب مع قرص من العقار. اعتبرت الحكومة الأمركية، وكان ليندون جونسون وقتها رئيسا للولايات المتحدّة، أن تلك الدعوة لها أغراض سياسية مثل تشجيع الزنوج على العصيان المدني الذي كان يدعو إليه مارتن لوثر كينج، وتشجيع الشباب على عدم الانضمام إلى صفوف القوّات التي ترسلها أمريكا إلى الحرب في فيتنام.

(٤)

لورا مسكينة لورا غلبانة. لورا هي ابنة جارة أختي في ستوك أون ترنت. لورا ليست جميلة بالمقاييس البريطانية، فهي مثلا ليست شقراء، بل إن شعرها أسود وعينيها سوداوان. لورا ليست رشيقة بل إنها تميل إلى الامتلاء. لورا ليست جريئة مقدامة بل هي تميل إلى الخجل. لكل هذه الأسباب مجتمعة لم يكن للورا النجاح النسبي الذي تحقّقه غيرها من الفتيات البريطانيات اللائي هنّ في مثل سنها من جيل البريطانيات الحالي، هذا الجيل الذي يتميّز إلى حد ما بالجرأة المبالغ فيها بل يصح أن أقول بالوقاحة.

كانت لورا تذهب إلى لندن بالقطار من ستوك أون ترنت في رحلة تستغرق حوالي ساعتين من الزمان، وتكلف ذهابا وإيابا حوالي أربعين

fb/mashro3pdf

جنيها، فقط لتهرب من المدينة الصغيرة وتحاول أن تجد لنفسها فرصة في الحياة. ذات مرة وهي في لندن كانت تسير في شارع بيلجريف رود في منطقة إلى الجنوب من محطة قطارات فيكتوريا ستاشن، عندما دخلت أحد محلات البقالة التي يديرها أحد أبناء باكستان. طلبت من صاحب المحل إحدى الفطائر بشريحة من لحم الكبد وهي من الفطائر التي تباع في مثل هذه البقالات. ذهب شاب كان يقف في البقالة إلى أحد الأرفف داخل الثلاجة وأحضرها لها.

هذا الشاب هو نوّاز. كان في لندن ليدرس كورسا مكثّفا في اللغة الإنجليزية في مدرسة صيفية لهذا الغرض. نوّاز لم يكن قادما من باكستان، بل كان قادما من دبيّ حيث يعمل منذ بضع سنوات في احدى الشركات التجارية ويحاول أن يحسّن وضعه المادي والاجتماعي بدراسة الإنجليزية. لهذا انتهز فرصة وجود لورا الإنجليزية ليمارس معها الدروس التي يتعلّمها. وجدت لورا أن هذا شيئا مسلّيا، وهي كانت تتسكّع في الشوارع لا تعرف ماذا تفعل بوقتها، فخرجا سويّا من البقالة واتجها إلى أقرب حديقة عامة حيث جلسا لمدة ساعتين. بعد شهرين سافرت معه إلى باكستان رغما عن إرادة أسرتها حيث تزوّجت نوّاز وفقا للشريعة الإسلامية.

(٥)

أنا مغرم جدا برسم الخرائط للمدن وللأحياء السكنية في المدن الكبيرة. ولا أدري عدد الخرائط التي صنعتها لباريس، مدينة مسقط

fb/mashro3pdf

رأسي، ولا للقاهرة وهي المدينة التي عشت فيها عشرين عاما من عمري. وبالتالي فأنا لا أدري كم مرة حاولت رسم خرائط للندن. ذهبت إلى لندن في السبعينات وكنت أتحرك فيها بسهولة لأني كنت شابا صغيرا. رسمت يومها خريطة مبسّطة لخريطة أخرى كبيرة كنت قد اشتريتها من مكتبة وكانت تحمل اسم حدود لندن العظمى Great London Barrier.

وفيها يمكن مثلا الاستدلال بالعلامات التي وضعتها بخط يدي على كرويدون التي كنت قد ذهبت إليها لمدّ فيزا الإقامة في لندن لمدة شهر ثان بالإضافة إلى الشهر الذي كنت قد حصلت عليه من باريس، وكذلك هناك علامة باليد على محطة قطار بادينجتون التي ذهبت منها إلى زيارة أوكسفورد حيث كانت تقيم احدى صديقات والدي. لم تكن السوق الأوروبية المشتركة قد بدأت بعد. ولم يكن الباسبور الفرنسي يسمح لي بالاقامة دون حدود، بل كان ينبغي علي الذهاب إلى سفارة لندن في باريس - كأي أجنبي آخر - للحصول على فيزا، ثم الذهاب إلى لندن في كرويدون لتجديد الفيزا.

في لندن السبعينات وضعت خطة مبدئية لزيارة كل الأماكن السياحية والأثريّة والفنيّة فيها. بداية من المتحف البريطاني British Museum، الذي كنت قد التفتُّ فيه بصفة أساسية إلى أقسام الحضارات القديمة، المصرية والبابلية والأشورية والكنعانية واليونانية والرومانية. ثم إلى متحف فيكتوريا آند ألبرت حيث وجدت مثلا الأقسام الخاصة بقطع الأثاث المختلفة (الموبيليا) عبر العصور، وليس فقط خلال العصر

fb/mashro3pdf

الفيكتوري من النصف الثاني للقرن التاسع عشر.

أما في لندن القرن الجديد فقد بدأت في الاكتفاء بالجولات التي تنظمّها شركات السياحة بالأوتوبيسات التي تدور فيها حول المدينة كلها في ثلاث ساعات، وتستطيع أن تستعمل نفس التذكرة لعدّة أيّام. أخذت أوتوبيس الخط البرتقالي اللون من أمام محطّة ايوستن، ثم التقطت صورة بكاميرا التصوير الضوئي التي تنتج صورا ورقية، فأنا لم أستعمل بعد التصوير الرقمي، لا أحبّه.

صورة للمبنى الفخم الجميل لفندق سانت بانكراس رينسانس هوتيل، وهو مبنى بالطراز القوطي، وقد أعيد تجديده لاحياء كل ملامح العمارة القوطية به، ليصبح أكثر فنادق لندن رومانسية في الوقت الحالي. إن أصدق تعريفات الرومانسية هو أنها الحنين إلى الماضي. حاولت الدخول لاحقا على جوجول ايرث للحصول على لقطات أخرى لنفس المبنى، الا أن جوجول تذكر أن هذه الصور أصبحت غير متاحة حاليا. يجوز أن هذا قد حدث مؤخّرا بسبب الاحتياطات الأمنية التي تجعل السلطات الإنجليزية في قلق دائم، من احتمال قيام بعض المنظّمات الإسلامية ببعض الأعمال الإرهابية، مثل التفجيرات التي حدثت في لندن في شهر يوليو سنة ٢٠٠٥.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الفصل السابع

(١)

بدلا من السير في الطريق العريض الواضح أمامي، كنت أمرّ عبر الحقول نحو الغابة الصغيرة التي تبدو لي من على هذا البُعْد. كنت أتعرّف عليها بسهولة فهي الغابة التي اعتدت على الذهاب إليها عندما كنت في نهاية فترة مراهقتي. عند هذه النقطة عادة ما يحدث أن تتوالى الصور في مخيّلتي. ثم يحدث أن تتوالى الألوان أمام عينيّ، لتشكّل المنظر الطبيعي بكل درجات اللونين الأخضر والبنّي. ثم يحدث أن تتوالى الروائح أمام أنفي، التي تتكوّن في الأساس من درجات حرق الأنواع المختلفة من أوراق الشجر الجافة. من الأشياء التي لا يعلمها الا المتخصّصون أن الروائح تختلف باختلاف نوع الورق المحروق. قد يصيبني أحيانا الدوار بسبب الحيرة. وبسبب الحاح الذكريات.

في أحلام يقظة طفولتي كنت أتخيّل أنني سأقدر يوما على تسلق أفرع الشجر مثل القِرَدَة في حديقة الحيوان. مثل طرزان روايات الجيب

fb/mashro3pdf

والأفلام الكارتون في الأربعينات والخمسينات. بل حتى كنت أتخيّل نفسي أحيانا قادرا على الطيران. كان كثيرا ما يحدث عندما أنظر إلى سقف حجرة نومي أن أراني وقد التصقت بالسقف بعد أن أكون قد طرت من فراشي. ارتبطت الغابة كذلك بالساحرات اللائي كنّ في الأغلب الأعم شرّيرات ماكرات.

دق جرس مدرسة القرية الذي يعلن نهاية اليوم المدرسي منبّها أهل القرية، حتى يأتي الآباء لاصطحاب أولادهم صغار السن عائدين إلى المنازل. وكما يحدث دائما شعرت أنني ربّما فقدت طريقي داخل الغابة. كانت تلك اللحظات القصيرة من الحيرة تسعدني. كنت طوال عمري أشعر بأن أكثر ما يناسب طبيعة شخصيتي هو الإحساس الدائم بأني في متاهة كبيرة. لكن الحقيقة هي أن الدخول إلى الغابة سهل لأنه يمكنك أن تراها من على بعد وتحدّد موقعها وأبعادها. الا أن النظرة تختلف لو كنت في وسط الغابة محاطا بأشجار مرتفعة كثيفة تعوق الرؤية.

إذن في هذه الحالة لم يكن عليّ للخروج من الغابة، الا محاولة الاستدلال بحاستيّ الأخريين، الشم والسمع، أن أشمّ روائح احتراق أوراق الشجر، أو أن أنصت إلى صوت السيّارات التي تمرّ بسرعة كبيرة على الطريق السريع (الأوتوروت)، الواصل بين مارسيليا ومونبيلييه. وأنا مراهق لم يكن هذا الطريق السريع موجودا.

من المفيد أحيانا الاستدلال على طريق العودة إلى القرية بضحكات وصخب الأطفال السعداء بنهاية اليوم المدرسي. وقفت إلى جوار

fb/mashro3pdf

الطريق السريع للسيّارات، أمام واجهة مسرح المدينة المكوّنة من صف من الأعمدة الكورنثية، بجذوعها المشقوقة طوليا، وبتيجانها من الأوراق النباتية الطويلة الملتوية المدبّبة الحواف. هذه الواجهة الملقاة هنا هكذا في العراء، هي التي تمّ نقلها إلى هنا منذ منتصف القرن، بعد أن كان قد تمّ بناء واجهة عصرية جديدة لمسرح المدينة.

(٢)

وصلت من باريس بالقطار إلى روان Rouen، وهي مدينة جميلة طالما أحببتها، بفضل أشياء كثيرة منها مقاهيها التي تفترش الأرصفة صيفا، وبيوتها القديمة المزينة بالعروق الخشبية (كولومباج)، وضفاف نهر السين الذي يتسع هنا كثيرا وهو يقترب من مصبّه في بحر المانش، مقارنة بنهر السين في نطاق منطقة باريس الذي قد يصل عرضه في بعض الأماكن بالكاد إلى مئة متر. هذا بالإضافة طبعا إلى كاتدرائيتها الجميلة التي تزيّنها نوافذ الزجاج المعشّق التي تحكي قصة القديس جوليان. السلام اليك يا فلوبير تحيّة لك على قصتك عن القديس جوليان التي استوحيتها من نوافذ كاتدرائية مدينة طفولتك. [٣]

كان اليوم في نهاية أغسطس، لا زال الجو يميل إلى الدفء، رغم السحب التي تغطّي سماء المدينة. شاهدت ملامح بداية عودة التلاميذ إلى المدارس، صف يقف أمام باب مدرسة في انتظار وصول سيارات الآباء التي ستعود بالأطفال إلى المنازل. مشيت حتى أطراف المدينة

fb/mashro3pdf

على قدميّ. وعند أطراف المدينة وجدت الحيّ الذي أبحث عنه. اسمه عجيب بعض الشيء. لوميسنيل إزنار.

وجدت الشارع (جابريال دافيد) الذي أبحث عنه. لكنّي تردّدت بعض الشيء لأنني لم أتخيل أن تكون المنطقة مهجورة إلى هذا الحد أو خالية من السكّان. إلى يساري تمتد منطقة شاسعة من النباتات العشوائية، من الحشائش الخضراء متفاوتة الطول ثم الأشجار التي تتكاثف كما أرى على البعد، لعله مدخل غابة صغيرة. أمّا إلى يميني فهناك سور بالطوب الأحمر بارتفاع مترين ونصف على الأقل، وتعلو السور أسلاك شائكة بارتفاع متر آخر.

تبدو أشجار مختلفة وراء السور، لكني لا أستطيع أن ألمح القصر الكائن في مكان ما في عمق الحديقة. أو فلأقل المنزل الريفي الذي تحيط به هذه الحديقة الشاسعة. مرّرت أمام البوّابة حيث لمحت كلب دوبرمان يأتي نحوي جريا وهو يعوي بطريقة متوحّشة. طبعا البوابة متينة وبارتفاع لا يسمح للكلب بالقفز فوقها. قد لا يكون هناك أحد من سكّان القصر هنا الآن، ولكن لا شك في أن هناك على الأقل الحارس الذي يضع الطعام لهذا الوحش المفترس. أوريليا طفولتي كيف سأصل اليك؟

تابعت السير كأني لم أكن أنوي طرق الباب أو حتى مجرّد القاء نظرة. البيت التالي كان على بعد حوالي مئتي متر. بباب خشبي مرتفع ولكن ضيّق العرض، وبصف من ثلاث نوافذ في الطابق الأرضي، تعلوها ثلاث نوافذ في الطابق العلوي. أين أرقام المنازل التي كان من المفروض أن

fb/mashro3pdf

توضع إلى جوار الأبواب؟ وكيف يمكن لأي شخص غريب أن يستدل على رقم ٢٧ لو أنه لم يجد أحدا يسأله كما هو متوقّع حتى لو كنّا - كما هي الحال - الآن في منتصف النهار؟

البيت الثالث كان قديما جدا عمره لا يقل عن ثلاثة قرون بدليل شيئين، أولا استعمال الأحجار غير المتساوية الحجم في بنائه، ثانيا وجود عروق خشب محمولة عليها الأسقف الخشبية. آه أخيرا وجدت رقما. ٢٣. إذن أنا فعلا محقّ في الاعتقاد بأن منزل الدوبرمان (أوريلي) هو الذي كنت أقصده. في نهاية هذا الشارع الغريب أشعر بالعودة من جديد إلى العمران. لكن أين هي بقية منازل الشارع التي تحمل الأرقام بين ١ و٢٣؟

(٣)

مشيت من المنزل الساحلي إلى الفندق الذي يقع على شاطئ البحر، وقد ضايقني جدا عدم حضور جوزفين إلى المنزل حسب الاتفاق السابق بيننا، حيث بقيت طوال بعد الظهر في انتظارها ملولا متأففا. دخلت في الفندق أولا إلى البار حيث أخذت كأسا من النبيذ الأبيض، ثم مشيت بخطوة بطيئة إلى الشرفة المطلة على البحر، حيث تأملت الشمس وهي تميل إلى المغيب، ثم عنّ لي فجأة أن ألقي نظرة على قاعة الرقص، رغم أن الساعة كانت بالكاد الثامنة مساء، والقاعة لا تفتح أبوابها رسميا في هذا الوقت من العام الا في التاسعة مساء، ولكن باقترابي من القاعة أمكنني أن أستمع إلى اسطوانة لموسيقى راقصة، وقد أدركت أن مسؤول

fb/mashro3pdf

الموسيقى بالقاعة قد أدار الاسطوانة اكراما لضيف عزيز عليه.

لمحت من على باب القاعة، حيث وقفت للحظة واحدة قبل أن أستدير وأغادر المكان برمّته، الفتاة المراهقة جيزيل التي لم أكن أعرف اسمها بعد، وقد ارتدت فستانا خفيفا يقف عند منتصف الفخذين، بحمّالتين عند الكتفين، وبذراعين عاريين، وقد قصّت شعرها الأسود الناعم على الموضة السائدة (آ لا جارسون)، وهي تلقي برأسها في دلال على كتف جوزفين، وتقبّلها في عنقها قبلات خفيفة متتالية، وهي نصف مغمضة العينين.

خرجت من جديد إلى الشرفة، ولم أعرف إن كانت جوزفين قد لمحتني، أو أن جيزيل قد قالت لها أي شيء عني، الا أنه كان من الواضح لي ولأي شخص سيراني الآن، أنني على قدر كبير من الاضطراب، بل في الحقيقة كنت على وشك أن أرتجف تماما، حتى أن رعشة خفيفة قد ألمّت بأطراف أصابع يديّ. كنت أقول في نفسي (كم هو حجم العذاب المقدّر لي أن أعانيه لو تماديت في مشاعري الغرامية تجاه جوزفين؟). بدا لي واضحا وضوح الشمس، أنها فتاة لاهية عابثة من النوع الذي يستمتع بتعذيب عشّاقه.

أما آن الأوان لقطع هذه العلاقة حتى أنجو بنفسي من مصير مظلم. سبق أن حكى لي بعض الأصدقاء حكايات عن فجور جوزفين، وعن قدرتها على الخداع، التي يمكنها أن تجعل منها عاهرة محترفة، لكني لم أكن أريد أبدا أن أصدق. هي قالت لي أمس أنها مريضة وأنها قد

fb/mashro3pdf

تلازم اليوم الفراش، وهأنذا أراها ترقص. يبدو أنها كانت تتوقّع ألا أغادر منزلي، أو أكتفي بالتنزه لبعض الوقت، فمن المؤكد أنها لم تكن تتوقّع أن أحضر مشيا إلى الفندق.

(٤)

شاهدت فتاة تشبه أوريلي تماما في القوام وطريقة تصفيف الشعر ونوعية الملابس التي تحب أن ترتديها. كانت أوريلي قد اختفت تماما من حياتي فجأة دون سابق إنذار لسبب لم أعرفه في حينها. الا أنني خلال سنوات لاحقة كنت كمن أصيب بمرض الوسواس القهري، ذلك عندما بدأت أرى أوريلي في عدد كبير من النساء. في ذلك اليوم المشار إليه أعلاه كنت أسير في شارع في إحدى المدن المتوسّطة الحجم في وسط انجلترا. كنت أمر أمام كنيسة قديمة في شارع ببلاطات صغيرة مخصّص فقط للمشاة وللتسوّق. عندما اعتقدت أنها هي. صحت بصوت مرتفع نسبيا (أوريلي). لم تلتفت الفتاة إلى المناداة. إذن ليست هي. انشغلت للحظات بسيارة محاولا تفاديها وترك أولوية المرور لها. كانت تعود بظهرها إلى الخلف لتدخل الشارع المخصّص للمشاة.

سيّارات نقل البضائع فقط هي المسموح لها بالدخول. لذلك رُفِعَت من أجلها الحواجز التي تمنع بقية السيّارات من دخول الشارع. هي سيارة تنقل بضائع إلى أحد محلات الشارع. كانت تصدر صوتا متكررا كما لو كان جملة موسيقية صغيرة لتنبيه المشاة. لمحت الفتاة من على بعد

fb/mashro3pdf

حوالي مئة متر. كانت قد استدارت لتنظر في إتجاهي. هل هي تنظر بعد أن أصبحت على بعد مسافة آمنة إلى من أطلق النداء؟ أم أنها استدارت لتنظر إلى السيّارة المتسبّبة في قدر من الضوضاء في هذا الجو الهادئ؟ هل هي أوريلي؟

جريت في اتجاهها محاولا تجنّب الاصطدام بالشارع المزدحم بالناس لأن اليوم كان السبت أكثر أيام الأسبوع ازدحاما بالمتسوّقين. اختفت الفتاة. لم أعثر عليها. ظللت كالمجنون أمشي بسرعة في كل الاتجاهات. ذهابا وإيابا في هذا الشارع التجاري المزدحم نسبيا. ثم جلست على أحد المقاعد الموجودة على الأرصفة أنظر في اتجاه المكان الذي لمحتها فيه لآخر مرة. لعلها دخلت محلا أو صعدت إلى مكتب في إحدى البنايات. ظللت أدير رأسي في كل الاتجاهات، وقد بقيت في مكاني ثلاث ساعات حتى أمطرت السماء فانسحبت.

(٥)

واحدة من ألعاب مراهقتنا كانت تمارس في حدائق الشوارع. كم كنت أحلم في يقظتي باللعب مع أورلي. أن أنقذها ثمّ أحتضنها. كان عرض الشارع الذي نلعب فيه بين حوائط العمارات إلى اليسار وحوائط العمارات إلى اليمين هو سبعون مترا، وبالتالي كان متروكا للحدائق على الجانبين مساحات كبيرة. كان اسم اللعبة هو (القاء القبض على فلان ووضعه خلف القضبان)، وهي لعبة كان أطفال ومراهقو المناطق الريفية

fb/mashro3pdf

يلعبونها في الحقول، ثم انتقلت إلى حدائق المدن، وظلت تمارس حتى وقت قريب في حدائق باريس. تحتاج اللعبة إلى فريقين متنافسين وملعب.

الملعب هو هذه المسافة الطولية من الحديقة التي يتم تقسيمها إلى نصفين متساويين، عن طريق رسم خط بعرض الملعب، فيقف أفراد الفريقين الذين لا يقلّ عددهم أبدا عن عشرة أفراد لكل فريق، في مواجهة بعضهم البعض على جانبي خط منتصف الملعب. ويتكون كل فريق من عدد من الفتيان والفتيات، وعادة ما تكون البنت على أحد جانبي الخط على علاقة بصبي على الجانب الآخر من الخط.

في حقيقة الأمر كانت هذه اللعبة فرصة للتلامس والاحتضان والشدّ والجذب بين البنات والفتيان، بل حتى لمس الفتيات في أماكن حسّاسة من أجسادهن، كالأثداء أو الأرداف، أثناء محاولة الفتيان الايقاع ببنات الفريق الخصم في الأسر، وجرّهن حتى زاوية معيّنة هي مساحة صغيرة من الأرض عند خط نهاية عمق الملعب وتسمّى الزنزانة، حيث يتم ربطهن كأسرى وذلك بتقييد أيديهن إلى جذع شجرة أو إلى أي نوع من الأعمدة. مع ما في هذا من إثارة جنسية واضحة.

عادة لا يتعرّض فتيان أحد الفريقين إلى فتيان الفريق الآخر، الا إذا كانت هناك بين صبيّين، منافسة على حب فتاة بعينها، في هذه الحالة يحاول الصبي من فريق الفتاة إنقاذها من أسر الفريق الخصم، فيحاول الصبي من الفريق الخصم اعتراض طريق الصبي من فريق الفتاة، ومنعه من إنقاذ الفتاة، على ألا يتعدّى الأمر أبدا مرحلة اعتراض الطريق بالجسم،

fb/mashro3pdf

أو الجذب من الملابس، أي أن توجيه اللكمات أو الركلات ممنوع، وهو ما قد يعرّض صاحبه إلى الطرد من اللعبة.

في نهاية فترة زمنية محدّدة قد تكون نصف ساعة، يكون الفريق الفائز هو الفريق الذي يتمكن من الاحتفاظ بالعدد الأكبر من الأسرى من الفتيات. كان متوسّط سن اللاعبين في هذه اللعبة هو خمسة عشر عاما، ولم يكن يقبل فيها من هم دون الثالثة عشرة، أو من هم قد تعدّوا السابعة عشرة، فقبل هذا السن لا يهتم الصبيان بالفتيات، وبعد هذا السن من المفروض أن تكون هناك وسائل أخرى لاشباع الرغبات التي تتعدّى مجرّد الاحتضان.

(٦)

لا يمكن لأي شخص أن يتخيّل حجم المجهود الذي بذلته في محاولة العثور على أوريلي. كنت آخذ القطار من باريس إلى أي مكان في فرنسا، لو جاءتني أيّة معلومات قد تسمح بالاستدلال عليها. المحطّة التي وصلت إليها الآن تشبه المحطّات التقليدية في فرنسا، فهي تتكوّن من مبنى واحد مرتفع إلى حوالي عشرة أمتار، بسقف مقبّى قد تضاف إليه بعض التماثيل ذات الأحجام التي تزيد قليلا عن حجم الجسم البشري، التي قد يصل طولها إلى مترين ونصف أو ثلاثة أمتار، وتضاف هذه التماثيل إلى واجهة المحطّة المطلّة على المدينة، وتكون غالبا لملوك وملكات فرنسا، أو لشخصيات من الأساطير اليونانية الرومانية.

fb/mashro3pdf

الى يسار الميدان هناك مبنيان سكنيان أحدهما طراز بداية القرن العشرين والآخر منتصفه. على الرصيف سيدة سمينة تجد صعوبة في المشي في هذا الجو الصيفي الحار. المبنى القديم بنوافذه وشرفاته التقليدية، يشغله فندق الجراند هوتيل، والمبنى الحديث بواجهته الزجاجية دون أيّة شرفات تشغله مكاتب متعدّدة الأغراض. هنا وجدت مكتب الأستاذ المحامي (ماتر لا بروبار).

كان هو الشخص الوحيد الذي ردّ على رسائلي المدفوعة الأجر في الصحف عن محاولة الاستدلال على شخص لديه معلومات عن (أوريلي لاجارد). الشيء العجيب جدا هو أن الأستاذ لم يكن موجودا في مكتبه، ولم تستطع السكرتيرة أن تشرح لي السبب في غيابه عن المكتب رغم الموعد الذي بيني وبينه. الأدهى هو أنها لم تكن على علم بهذا الموعد. لو كان هذا قد حدث الآن لكان من الممكن العثور عليه عن طريق الموبايل. لكننا لم نكن الا في منتصف الثمانينات. طلبت مني السكرتيرة أن أعود بعد ساعتين لضمان وجود الأستاذ.

عدت إلى الشارع لأسير تحت صف من الأشجار كثيفة الأوراق، الا أنني للحظة عابرة شعرت بالدوار. حتى أنني اقتربت من الحائط لأستند عليه. ثم دخلت إلى مقهى صغير على ناصية الشارع لأحتسي قدحا صغيرا من القهوة السوداء. إلى متى أظل أبحث عنها هكذا كلما عدت إلى فرنسا؟ وأفقد بالتالي الأيام التي كان ينبغي أن أخصّصها للراحة والمتعة؟ إلى متى تظل ضائعة مني؟ ولماذا لا أريد أن أتقبّل فكرة الفقد؟

fb/mashro3pdf

رغم أنه أكثر ما يميّز حياتي.

عندما كنت في السنغال فقدت حقيبة بها أوراق ورسائل قديمة وألبومات بها صور فوتوغرافية لطفولتي ولمراهقتي. هذا الفقد جعلني مهموما بمزاج تعيس لفترة طويلة. فالصور لم تكن في حوزة أي شخص آخر عداي. قد تكون لدي أوريلي بعض النسخ منها. طالما تساءلت اذا كان اللصوص قد قرروا سرقة النقود والأشياء الثمينة، فلماذا يسرقون أوراقا لا تعنيهم في شيء؟ أكاد أصاب بالجنون كلما فكرت في صور أوريلي معي في المدرسة وهي تحيط عنقي بذراعيها الصغيرين.

(٧)

تركت حقيبتي الخفيفة في الفندق ونزلت إلى الشارع من جديد. المدينة قديمة جدا وكل منازلها من طابقين أو ثلاثة طوابق. لم أجد بها الأبراج الحديثة التي عادة ما ترتفع إلى اثني عشر أو خمسة عشر طابقا، التي غالبا ما نجدها في المدن التي تحوّلت بالتدريج إلى التجارة والأعمال خلال السنوات الثلاثين المجيدة. سنوات الازدهار الاقتصادي التي بدأت بعد الحرب العالمية الثانية.

غياب الأبراج هو دائما الدليل الأكيد على عدم وجود نشاط تجاري كبير في المدينة، التي لعلها لا تزال تعتمد في دخلها على السياحة الدينية القادمة إلى هنا لزيارة المقر السابق لإقامة القدّيس ستانيسلاف. كما أنني لا زلت أتذكر أن هذه المدينة تشتهر كذلك بسمعتها العالمية في مجال

fb/mashro3pdf

تصنيع الخمور. في فرنسا هذه المسألة ليس بها أي تناقض. القدّيس والخمور.

صفوف من الأشجار على جوانب الشوارع. دخلت أول مقهى وسألت النادل (هل تعرف أوريلي لاجارد). أنكر معرفته بها في الحاح.

(لا أعرفها أبدا ولم أسمع بهذا الاسم من قبل إطلاقا، أؤكّد لك بمنتهى الأمانة أن هذه هي الحقيقة)

هل هناك في منظري ما يدعو إلى الخوف؟ شيء محيّر جدا. صحيح أنني أطول منه قامة، وصحيح كذلك أنني بكتفيّ العريضين قد أبدو رياضيّا.

لكن ألا يرى في ملامح وجهي مدى عذابي وبؤسي وحيرتي؟ أعتقد أن هذا التأثير يتركه غالبا صوتي العميق. عندما كنت في بداية العشرينات نصحني معارفي وأصدقائي بأن أعمل في الإذاعة أو في التلفزيون، لأنهم دائما يبحثون هناك عن هذا الصوت العميق الموحي بالخطر. عند خروجي من المقهى تحولت المساكن والمباني أمامي إلى مجموعة مشوّهة من الكتل الحجرية المكعّبة والهرمية والأسطوانية الشكل. الشوارع كلها متشابهة. بتقاطعات ذات زوايا قائمة. متاهة كبرى.

(٨)

لماذا لم أحصل لنفسي على خريطة لهذه المدينة (سان ستانيسلاف)؟ أنا لم أسمع أبدا باسم هذا القدّيس من قبل، ولا أعرف لماذا حصل من

fb/mashro3pdf

الفاتيكان على لقب القداسة؟ ما هي معجزاته وأفعاله الجديرة بالتقديس؟ هذا الفاتيكان شوّه حياتنا تماما بكل هذه الكمّية التي تبدو لي أحيانا لا نهائية لأشخاص عاديين مثلنا حصلوا على التقديس لأسباب مجهولة تماما.

أخيرا هناك ما يدعو إلى بعض التفاؤل، إذ أرى سيارة حمراء صغيرة عند تقاطع الشارع القادم، بل أنني أرى كذلك أحد المحلات المفتوحة رغم أن الساعة قد تعدّت العاشرة مساءً. إنه محل لبيع أجهزة التكييف والمستلزمات الصحيّة الخاصة بدورات المياه. هل يصح أن أدخل لأسأله إن كان يعرف أوريلي لاجارد؟ إلى جواره يوجد مكتب صرافة مغلق. كذلك يوجد إلى جوارهما محل مغلق لبيع المظلات التي تستعمل في الحدائق والشواطئ والشرفات. ماذا أفعل؟

لمحت من على بعد برج الكنيسة، فوق قمم مجموعة المباني السكنية. كلما ازداد اقترابي منها وهي لا تزال خلف صفوف المباني السكنية ازداد يقيني من أنها ليست مجرّد كنيسة عادية وإنما هي غالبا ستكون كبيرة الحجم بما يناسب غالبا كاتدرائيات القرون الوسطى، قبّة ضخمة في شكل نصف كرة، وواجهة تشغلها تماثيل مئات القدّيسين المحليين والعالميين، بالإضافة إلى بوّابات الدخول قوطية الطراز بأقواسها التي تتداخل بعضها في بعض ويعلو بعضها بعضا. وجدت مجموعة من الإس دي إف، الذين ليست لديهم بطاقات شخصية، لأنه ليست لديهم محلاّت إقامة، جالسين في ميدان الكاتدرائية يغنّون وهم

fb/mashro3pdf

سكارى. نادوني وتجاهلتهم.

في وسط ميدان الكاتدرائية جاءني صوت موسيقى قادم من جهة أحد الشوارع المتفرّعة من الميدان. عندما اقتربت من الصوت اكتشفت أنه قادم من بار. قررت الدخول لاحتساء أكبر قدر ممكن من أقداح الخمر لعلي أستطيع أن أنسى نفسي قليلا. ماذا فعلت في حياتي لأستحق هذا؟ يا له من شيء مرعب أن يراودك طول الوقت طيف تلك التي أحبّبتها، دون أن تعثر لها على أثر. هو أقرب إلى ملهى ليلي منه إلى بار. فرقة موسيقية صغيرة مكوّنة من ثلاثة عازفي جاز تقليديين، تريو بيانو وكونترباص ودرامز، مع مغني أسود بلهجة أمريكية تدل على أنه أمريكي، انشغل طوال ساعة كاملة بالبلوز، وهو ما كان مناسبا جدا للحالة النفسية التي كنت فيها تلك الليلة. التفتُّ إلى جواري على الكاونتر الزنك لأجد شخصا يبدو من ملامحه أنه شرقيّ.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الفصل الثامن

(١)

عندما خرجت من محطة قطار نوتينجهام، وهو من المباني الجميلة التي تتميّز بالطابع الفيكتوري للنصف الثاني من القرن التاسع عشر، كانت السماء تمطر مطرا خفيفا مقبولا، وكانت الساعة تقترب من الثانية عشرة ظهرا، وهو الموعد الذي تزدحم فيه كل المطاعم والمقاهي الإنجليزية بموظّفي الحكومة والقطاع الخاص. يجب أن أذكر هنا موضّحا أن اليوم هو السبت وبالتالي فإنه يوم عطلة رسمية لموظّفي الحكومة، الا أن القطاع الخاص الذي يعمل في التجارة يجعل موظّفيه يعملون في هذا اليوم.

كنا في الأسبوع الأخير من يوليو وبالتالي تزدحم المدينة بالسيّاح القادمين من عدد كبير من بلاد العالم. في وقت لاحق من النهار قابلت تلاميذ رحلة مدرسية من جنوب فرنسا، وتحدّثت إليهم عن عملي في السياحة وعن إقامتي في مصر. كانت أوريلي قد اتصلّت بي تلفونيّا واتفقت معي على اللقاء في مطعم قالت لي إنه في نفس الشارع الذي يقع

fb/mashro3pdf

فيه مدخل محطة القطار. قالت (لو خرجت من باب المحطّة واتجهت يمينا على نفس الرصيف، ستجده بعد أقل من مائة خطوة)

هو مطعم هندي يحمل اسم (تاندوري)، وهي ستكون جالسة في أقرب مقعد من الباب حتى أتمكن من رؤيتها بمجرّد دخولي إلى المطعم. لمن لم يذهب إلى نوتينجهام يجب أن أقول إنها مدينة كبيرة وبها عدد كبير من السكّان، وإنها تقريبا ثامن مدينة انجليزية من حيث الحجم أو المساحة أو الكتلة السكانية، في الواقع لم أعد أعرف ما هي المقاييس التي يستعملونها حاليا في قياس حجم المدن. هم يقولون مثلا إن نيويورك هي أكبر مدينة في العالم من حيث حجم الكتلة المعمارية، أي مجموع أحجام جميع العمارات والمباني السكنية وغير السكنية في المدينة، وإن المدينة التالية لها في الحجم والتي ستلحق بها قريبا ثم تسبقها هي شنجهاي الصينية.

في الواقع أنا كنت قادما إلى نوتينجهام بالقطار من برمينجهام، حيث كنت أقيم لفترة وجيزة لدى أحد أصدقاء أختي الإنجليزية، حتى أتمكن بأقل التكاليف الممكنة من زيارة أكبر عدد من المدن الإنجليزية، التي تحيط بالمدينة الصغيرة حيث تقيم أختي. إن أكثر ما يكلّف مالا في حالة التنقّل بين المدن الأجنبية هو أن تدفع أجرة الإقامة في أحد الفنادق. كانت أختي تقيم في (ستوك أون ترنت) وهي من مدن إقليم الميدلاند، وتقع تقريبا على مسافة متساوية من المدينتين الكبيرتين نوتينجهام وبيرمينجهام.

fb/mashro3pdf

المهم هو أنني قطعت الشارع كله من بدايته حتى وصلت إلى نهايته بالقرب من المجرى المائي الذي يحمل اسم قناة نوتينجهام، ولم أجد أي مطعم هندي يحمل اسم تاندوري. في الواقع لم أجد حتى أي مطعم هندي على الاطلاق، رغم أن تجربتي بالمشي لأول مرة في شوارع نوتينجهام تدل على أن المدينة تمتلئ بالهنود. في تلك اللحظة قرّرت أن أستعين بسائق احدى سيّارات الأجرة حيث إنني كنت أمرّ إلى جوار موقف لهذه السيّارات، وقرّرت أن أختار واحدا من أولئك الذين يرتدون عمامة رأس كبيرة وهو الدليل القاطع على أنه هنديّ.

(٢)

وجدت تجمّعا من البشر حول رجل يقف في الهواء. رجل يرتدي ملابس مهرّج clown يقف مستندا إلى عمود كهرباء ثم يرفع قدميه ثم ساقيه ثم جسمه كله في الهواء! ثم يرفع يديه عن عمود الكهرباء ويعتدل واقفا تاركا بين قدميه والأرض مسافة لا تقل عن نصف متر! ما هو بالضبط الشيء الذي يحدث هنا؟ هل هذا هو تنويم مغناطيسي جمعي؟ لا أعتقد أنه يستطيع ممارسة التنويم المغناطيسي على كل هؤلاء الناس.

لا أعتقد أن هناك أيّة خدعة بصرية في هذا الموضوع. هو يطير في الهواء. بعد قليل وقف رجل متقدّم في السن ينظر لبضع لحظات ثم ذهب ليضرب الهواء أسفل قدميّ الرجل الطائر بالعصا التي يتكّىء عليها.

fb/mashro3pdf

سمعت كلمة القدرة على الارتفاع في الهواء levitation التي تردّدت على الألسنة. سمعت كلمات أخرى مثل فقراء الهنود واليوجا والسحر الأسود.

ثم جاء صوت طبول مرتفع جدا من أحد أطراف الميدان، فذهبت مع غيري في هذا الاتجاه لاستطلاع الخبر. تركنا الرجل الطائر وحده ليعاود وضع قدميه على الأرض بعد أن انفضّ عنه الجمع. بعد مقدّمة المسيرة التي تتكون من حوالي عشرة رجال يسيرون معا ويدقّون طبولهم بهذه الضجّة الهائلة غير المعتادة في هذه المدن الهادئة، ظهرت سيّارات النقل الضخمة (اللوري) التي يقف على ظهورها رجال ونساء يرقصون على ايقاع أغنية تتفق مع إيقاع الطبول.

كانوا جميعا أنصاف عراة، فالرجال والنساء يرتدون الشورتات القصيرة، ويترك الرجال صدورهم عارية، وقد تفعل بعض النسوة نفس الشيء. ثم إنهم يقصّون شعور رؤوسهم بأشكال غريبة أكثرها انتشارا هو شكل عُرْف الديك، ويصبغونها بألوان غريبة مثل البنفسجي والأحمر والأخضر، ويضعون كلهم أقراط الآذان، ويعلقون حول أعناقهم العقود المتعدّدة الألوان. لاحظت كذلك النساء يقبّلن بعضهن بعضا والرجال كذلك يقبّلون بعضهم بعضا.

إنه العرض السنوي gay pride، الذي يحتفل فيه مثليّو إنجلترا من الذكور والاناث بحقّهم الطبيعي في الحياة، وفي ممارسة حيواتهم الخاصة بالطريقة التي تروقهم. هم يحملون لافتات تطالب الحكومات

fb/mashro3pdf

بضرورة اصدار القوانين التي تسمح للمثليين بالزواج. حصلت على أحد الأشرطة التي يتمّ توزيعها مجّانا على جانبي الطريق، وتحمل سبعة ألوان الطيف (قوس قزح)، ولا أعرف متى أصبح هذا القوس قزح رمزا لهم.

(٣)

هذه المجموعة من البشر أصبح يشار اليهم الآن بهذه الحروف الإنجليزية الأربعة LGBT، والحرف الأول يشير إلى المثليّات Lesbians، والثاني إلى المثليين Gay ، والثالث إلى مزدوجي الميول Bisexual ، والرابع إلى من وجدوا في أجسامهم الأعضاء الجنسية للنوعين البشريين Transgender، وهم جميعا لا ذنب لهم في طبائعهم تلك، بل هم ضحية الخالق القدير وصنعة يده، أو ضحيّة مصائرهم التي أوقعتهم في مشاكل الطفولة والتكوين.

إن أغلب مؤسّسي الديانات الكبرى، أو في الحقيقة كلهم، كانت لهم أحكام سطحية قاطعة جائرة، فيما يتعلّق بالمسائل الأخلاقية، فهم يدينون البشر في جرائم لم يرتكبوها، وأنت إمّا أبيض أو أسود، مع ما في هذا من ظلم لأصحاب البشرة السوداء. لم يقبل مؤسّسو الديانات الكبرى الاعتراف بالضعف البشري، الناتج عن الأمراض النفسية والعقلية، والاضطرابات الهورمونية والجينية، التي كانت حتى بداية القرن التاسع عشر، تعزى إلى الجنّ والعفاريت والأرواح الشريرة، حتى أن كثيرا من المرضى العقليين والمصابين بأمراض تتعلّق باختلال إفرازات الغدد

fb/mashro3pdf

الصمّاء، كانوا يحرقون في الميادين العامة. التطوّر العلمي الحديث في القرنين العشرين والواحد والعشرين، جعلنا نفهم أشياء كانت غائبة تماما عن بشر القرون الوسطى، فلماذا نظلّ متعلّقين بأحكامهم؟

تفسير الكنيسة لقوس قزح هو من سفر نهاية العالم Apocalypse، حيث يقول القدّيس يوحنا في الاصحاح الرابع، إن وجود قَوْسُ قُزَحَ في السماء حَوْلَ عَرْشِ الله، هو علامة ميثاق بين الله والإنسان، فالله لا يريد هلاك الإنسان وموته كما سبق وأن وعد نوح. ووجود هذه العلامة هنا وحَوْلَ الْعَرْشِ، إشارة تعطينا اطمئنانا، أن الله يذكر هذا الوعد ولا يريد هلاكنا. فالله لا ينسى وعده لنوح ولا لأبنائه. وتعدد ألوان قوس قزح يشير لتعدد بركات ومواهب الروح القدس للكنيسة.

في تفسير الرسالة إلى العبرانيين قال بولس الرسول: إن قوس قزح كان علامة أو ختم العهد الإلهي مع الأرض، وكان هذا العهد بمثابة ميثاق أو اتفاق ربط الله نفسه به مع الإنسان، بأنه سوف لا يُغرق الأرض بطوفان مرة ثانية. هكذا يُرى قوس قزح، كما لو كان مذكّراً بأن الله سيتصرف وفقاً لنص ذلك الاتفاق أو الميثاق. فهو لن ينسى ضمانة العهد الذي أعطاه.

يظلّ السؤال مطروحا: من قام باختيار ألوان الطيف رمزا لهذه المجموعات البشرية، هل اختارها لأسباب تتعلق بالعناية الالهية؟ أم لأسباب تتعلق بالصفاء النفسي الذي قد يتحقّق بالنظر إلى السماء في يوم ممطر؟ لا يزال هناك في عالمنا المعاصر، رغم كل التقدّم العلمي

fb/mashro3pdf

الحاصل حاليا، من يعتقد أن عاصفة أو زلزالا أو مجاعة أو وباءا، هي أدلّة على غضب الله.

(٤)

يبدو بوضوح أن أغلبية الموجودين في الشوارع اليوم في لندن ليسوا من الانجليز. هناك الكثير من الهنود وكذلك الكثير من العرب. هناك كذلك بهلوان يرتدي ملابس ملونة بكل الألوان، ويقف على ساقين خشبيتين طويلتين، تجعله يبلغ الثلاثة أمتار طولا، يلتفّ حوله الأطفال فيقوم شخص آخر بتوزيع الحلوى عليهم كنوع من الدعاية للمحل الذي يقف أمامه.

أكثر ما يوتّرني ويثير أعصابي هو أن تجد أسرة عربية، الأب يرتدي البنطلون القصير (الشورت) الذي يتوقّف أعلى الركبة، والتي شيرت بياقة واسعة ذات حردة دائرية تسمح بالتنفّس الحر، في حين تكون زوجته المسكينة المغلوبة على أمرها، عبارة عن خيمة سوداء من القماش ذي الطبقات، حتى لا يظهر لأي رجل غريب عنها أيّة تفاصيل من جسمها.

شيء مقرف جدا أن تغطّي جسمها بهذه الطريقة في هذا الجو الدافئ. ألم يكن كافيا أن ترتدي بنطالا واسعا وتي شيرت بأكمام؟ الأدهى والأمرّ هو أنها تغطّي رأسها كله بنقاب أسود، ولا يظهر منها الا عيناها. في الحقيقة لا أعرف كيف تتنفّس؟ ولا أعرف كيف تأكل في المطاعم؟ في الحقيقة لا أعرف لماذا لا تثور هذه المرأة على هذه الأوضاع الشاذة؟

fb/mashro3pdf

ثم تجد بعض الفتيات العربيات وقد وقفن في المظاهرات الصامتة حاملات لافتات تقول

(هل تفضّل قطعة الحلوى المكشوفة التي يحطّ عليها الذباب؟ أم الحلوى الملفوفة جيّدا بورق سيلوفان؟)

وهنّ يتجاهلن حقيقة أن الحلوى هي شيء ميّت لا يهمّه ان كان معروضا للهواء، أو ملفوفا في الأوراق، في حين أن الفتاة هي كائن حيّ يحتاج إلى الهواء ليتنفّس. لم أعد أحتمل هذا الكمّ من المغالطات الوقحة.

(٥)

من الملاحظ أن العرب في لندن هم المسلمون الأثرياء، الذي يقيمون في الضواحي الراقية في مناطق شمال غرب لندن، ويتنزّهون ويأكلون في مطاعم مرتفعة الأسعار، في شارع بايزووتر بامتداد حدائق الهايد بارك، وكذلك شارع ادجوار رود، وهما الشارعان اللذان يبدآن من نهاية شارع أوكسفورد حيث يوجد القوس الرخامي (ماربل آرش).

هؤلاء العرب الأثرياء ليسوا الا بضعة عشرات الآلاف، أما المسلمون الفقراء الذين يقدّر عددهم بحوالي مليونين (حوالي ٣ ٪ من المجموع الكلي لسكان بريطانيا)، فهم غالبا من أصول باكستانية أو هندية، وهؤلاء يقيمون في الضواحي العمّالية على أطراف المدينة، وقد انضمّت اليهم لاحقا مجموعات كبيرة تقدّر بعشرات الآلاف من أصول عربية فقيرة،

fb/mashro3pdf

قادمة في هجرة غير شرعية من مناطق الصراع في العراق وسوريا وليبيا.

أصبح هؤلاء المسلمون الفقراء مؤخّرا شوكة في ظهر الإدارة البريطانية، بالمساعدات المالية التي يحتاجونها كلاجئي حرب، ولعدم كفاءتهم أو صلاحيتهم لسوق العمل البريطاني، الذي يقوم فيه شباب بنجلاديش وجزر البحر الكاريبي وكينيا بأداء المهن البسيطة كالعمل في تنظيف الشوارع والقطارات.

أصبحوا كذلك وجعا في دماغ الشرطة البريطانية بما يفرضونه على سكّان مناطقهم من مظاهر الأسلمة، كانطلاق الآذان من المساجد حتى في الفجر، وكشغل مساحات واسعة من الشوارع في أيّام الجمع بسبب صلاة الظهر. ثم جاءت بعد ذلك موجات من مهاجمة محلات تقديم وبيع الخمور، بل وحتى اعتراض طريق الفتيات اللائي يرتدين الملابس القصيرة، قائلين لهنّ إن هذه المناطق أصبح ممنوعا فيها ارتداء الملابس القصيرة، وقد لا يتورّعون عن صفع الفتيات على وجوههنّ، والجري للاختفاء في أماكنهم السرّيّة قبل وصول أول رجل شرطة.

هناك سؤال يطرح نفسه بشدّة على المجتمعات الأوروبية الحديثة، التي قبلت خلال التسعينات موجات متتالية من الهجرة الجماعية، من بلاد أغلب سكّانها يدينون بالإسلام، ويذهبون إلى أوروبا حيث يحاولون فرض معتقداتهم وشرائعهم على أهلها، رغم أن التجربة الأوروبية تختلف تماما من الناحية الفكرية والأخلاقية، عن التجربة التي مرّت بها الشعوب الإسلامية، في باكستان وبنجلاديش وأفغانستان ونيجيريا

fb/mashro3pdf

والبلاد العربية. فإذا كان المسلمون لا يقبلون أي تأقلم مع ظروف الحياة في المجتمعات الأوروبية، فالسؤال هو لماذا ينبغي على الأوروبيين احتمال من لا يحتملهم؟ ولماذا لا تتوقّف الحكومات الأوروبية عن تقديم كل الخدمات لهم طالما أنهم يمنعون رجال الشرطة من دخول مناطقهم No go zone؟ هل ينبغي الانتظار حتى يعلنوا مناطقهم دولا مستقلّة؟

fb/mashro3pdf

الفصل التاسع

(١)

١٩٩٢. من بين أقوى المؤثّرات التي تلعب دورا قويّا في حياة الانسان هي هورموناته وجيناته التي ليس للإنسان عليها أيّة سيطرة. أعود كثيرا إلى التفكير في عبد السلام. دامت علاقتنا عشر سنوات حتى عدت نهائيا إلى فرنسا لأعالج من تليّف الكبد الذي أصابني بسبب أطنان الخمور التي تجرّعتها خلال ثلاثين عاما، أي في الحقيقة منذ كنت تقريبا في الخامسة عشرة من العمر. انتهى بي الحال في سنواتي الأخيرة بمصر إلى احتساء زجاجتي نبيذ في اليوم الواحد. كان غالبا من النبيذ المصري الرخيص (عمر الخيّام) و(جناكليس) و(البطالسة)، الذي لم أكن أجد غيره في الأسواق المصرية في فترة نهاية التسعينات. وأحيانا كان الأصدقاء الفرنسيون يحملون لي زجاجات عرقي فرنسي من صنف (ريكار). كنت في وقت ما من سكني في حيّ الزمالك حيث تتميّز الشوارع ببعض الهدوء في الأمسيات، قد اشتريت كلبا وأسميته (ريكار).

fb/mashro3pdf

عبد السلام يتذكّر جيدا هذه الأصابع التي كانت تدخل هناك لتلعب، وهو يحاول أن يتحرّر من القبضة القوية التي تبقيه جالسا على الأفخاذ، الا أنهم كانوا بالطبع أقوى منه. هل كان عبد السلام يخشى أن يصرخ؟ هو كان قد بدأ يعي أن أباه يضرب أمه. هل كان يخشى أن يصبح هو الآخر ضحيّة ضرب أبيه؟ هل هذا هو السبب الحقيقي الذي أدّى بأبيه إلى الرغبة في التخلّص من هذا الطفل ومن أمه؟

طبعا لم يصل عبد السلام إلى أية إجابات على أي من هذه الأسئلة. الا أنه طالما أصبح يستمتع بمثليته الجنسية، يستمتع بهذه الأصابع التي استمرت في اقتحام خرمه الخلفي الصغير. لم يعد يتشكّى. كانت أصابع بطون جيرانه من أطفال حيّ إمبابة، ثم أصابع بطون زملائه الأكبر منه سنّا في مهنة المعمار، تجعله يشعر بمتعة غير عادية. الغريب هو أن هذه الممارسات المنزلية لم تلفت انتباه أي شخص كبير في العائلة.

في الأحداث والوقائع المنزلية أين كانت أمه مثلا؟ ثم في الأحداث والوقائع في مجال العمل أين كان أخواله؟ أم أن العرف السائد هو السكوت عن هذه الممارسات، طالما أنها لا يمكن تجنّبها في مجتمعات الفصل الجائر بين الجنسين، وبالتالي لا يمكن التحكّم فيها. عبد السلام وصل إلى نتيجة أكيدة واحدة، هي أنه لم تعد هناك جدوى من حكاية هذه القصص، ولم يعد هناك داع لحكاية هذه القصص، وبالتالي هو لم يعد يحكي هذه القصص. قال لي إنني آخر شخص في هذا العالم سيحكي له قصته تلك.

fb/mashro3pdf

(٢)

كان عبد السلام قد جاءني لأول مرة وهو يحمل وجبة غذاء من أحد مطاعم الزمالك التي تقدّم خدمة توصيل الطلبات إلى المنازل. هو من النوع الذي أحبّه. رفيع الجسم، أسمر البشرة، بعينين سوداوين وملامح وجه جميلة. لم يتردّد لحظة واحدة عندما دعوته إلى داخل الشقة. من المحتمل أن ابن البوّاب كان قد حكى له عنّي. كيف أستطيع أن أعرف ماذا قال له. في تلك المرّة الأولى لم أتعجّل المسائل، وذلك لأني كنت أخطّط منذ تلك اللحظة التي رأيته فيها لأول مرة أن يكون عبد السلام صديقا دائما. قبل أن ألمسه أو حتى أقترب منه قال لي

(أمي مريضة ومحتاج فلوس علشان أشتريلها الدوا)

وضعت يدي في جيبي وأخرجت بضعة أوراق مالية أعطيتها له. فانصرف على الفور بحجّة الذهاب لشراء الأدوية والذهاب بها إلى أمه. لكنه في الحقيقة عاد اليّ وحده في اليوم التالي دون حتى أن أذهب للبحث عنه. عندما خلع ملابسه أمامي في المرة الأولى، تعجّبت جدا من وجود حالة مرضيّة متقدّمة من دوالي الساقين.

قال (المرة الجاية لمّا تروح فرنسا تبقى تشتري لي شرابات طبيه من اللي بتضغط على الأوردة)

سألته (ازّاي جالك المرض ده وانت يا دوب ٢٢ سنة؟)

كان أهل والدته فقراء ولم تكن والدته متعلّمة فلم ترسله إلى المدرسة،

fb/mashro3pdf

بل أرسلته إلى العمل منذ العاشرة مع أخواله في مواقع البناء، يحمل قوالب الطوب فوق رأسه وأكتافه، وينقلها من الموقع الذي تفرغها فيه السيّارة إلى موقع البناء. طفولة معذّبة وبائسة جدا ليس فيها من الطفولة شيء.

(٣)

بالنسبة للعمارة السكنية التي أقمت فيها، فما كان يحدث في البداية هو أن أغلب شقق العمارة والتي يقدّر عددها بأربعين شقة، كانت تؤجّر مفروشة للأجانب أو للعرب. الذي كان يحدث عادة هو أن الشقق تؤجّر للأجانب العاملين في حقول السياحة والتدريس والآثار خلال فصول الشتاء. ثم يقوم المستأجر بجمع كل متعلّقاته في غرفة واحدة تغلق بمفتاح يحتفظ به معه، على أن يتمّ تأجير الشقة بمعرفة صاحب الشقة أو صاحب العمارة خلال شهور أو أسابيع الصيف التي يغيب فيها الخواجة في أوروبا للسيّاح العرب، مقابل أن يحتفظ الخواجة بالشقة دون أن يدفع مصاريف استئجارها خلال شهور فصل الصيف. وهو نظام مقبول.

كان يحدث أحيانا أن أصل عائدا إلى مصر في نهاية شهر أغسطس، وهو توقيت يكون فيه عدد من الشقق المفروشة لا يزال مشغولا بالسيّاح العرب. في تلك الحالات كان يحدث غالبا أن يدق جرس الباب عشر مرات في اليوم، لأجد أمامي مصريين من كل فئات الشعب الفقير، يعرضون خدمات مختلفة منها الطبخ والغسل والكنس، ولكن منها

fb/mashro3pdf

كذلك الخدمات الجنسية سواء من صبية في الخامسة عشرة من العمر أو بنات لا يتعديّن العشرين.

طبعا كل هؤلاء لا يمرّون من باب العمارة دون أن يحصل البوّابون على أنصبتهم العادلة ونسبهم المئوية مم يحصل عليه مقدّمو الخدمات. هؤلاء كانوا يختفون تماما من الجوار بمجرّد انتهاء شهر سبتمبر، وعودة كل الأجانب إلى شققهم. ذات مرة دق جرس الباب ففتح عبد السلام الباب ليجد أمامه فتاة شعبية (أعتقد أن فتاة بلدي هو التعبير الأليق)، تلف جسمها في جلباب شعبي أسود، تزيحه من طريقها وتريد الدخول إلى حجرة النوم، قالت لعبد السلام (أنا كنت هنا من يومين انده سيدك عبدالله السعودي)، وعبثا حاول عبد السلام أن يشرح لها، ولم تقتنع الا بعد أن خرجت أنا اليها.

(٤)

لا أحد من الفنيين العاملين في مثل هذه المهن، يفهم في عمله. الكهرباء والسباكة وتصليح الأجهزة مثل الثلاجات والغسّالات وأجهزة تكييف الهواء. كلهم لم يتعلموا أصول صناعاتهم تلك. بل هم يقومون في كل الأحوال بالاجتهاد وفق نظرية المثل الذي تعلمته في أحد فصول العامية المصرية في معهد الآي ال آي في مدينة الصحفيين، (مرة تصيب ومرة تخيب). أي أنهم يقومون بالتجارب على حساب الزبون.

الا إن أسوأ ما يمكن أن يحدث لك في مصر هو أن تقع في يد أحد

fb/mashro3pdf

الفنيين الأسطوات الصنايعية، الذين يجدون لذّة عجيبة في استغلال أي أجنبي تعس الحظ وقع في أيديهم. حدث أن جاءني سبّاك لتغيير مواسير في الحمّام كانت تنشع منها المياه، جاء للاستكشاف ثم قام بغلق محبس المياه في الحمّام وفكّ المواسير لتركيب غيرها، وغاب ثلاثة أيّام، وأنا لا أستطيع الاستحمام. ثم جاء في اليوم الرابع يطلب ١٠٠٠ جنيها. عندما شاهد التعبير على وجهي قال (مراتي عيّانة ولازم أعالجها، مفيش إنسانية ولّلا ايه)، ثم (أنا عندي فتاق ومش لاقي حق العلاج).

أدركت متأخّرا جدا، أن مشكلتي الحقيقية في مصر هي أنني درست اللغة العربية في مقر الجامعة الأمريكية بالتحرير، أولا اللغة التي تسمّى لغة الصحافة أو اللغة العربية المتوسّطة المتعارف عليها standard Arabic، لمدّة ثلاث سنوات خلال شهور الصيف وتوقّف العمل السياحي، بدلا من الذهاب لقضاء اجازاتي في باريس، ثم ثانيا درست العامية المصرية colloquial Arabic، حتى أتقنتها، ليتني ما فعلت ذلك. عندما لاحظ أنني بقيت صامتا، قال (بلاش ألف جنيه خلّيهم ٩٠٠) ثم (خلّيهم ٨٠٠). في النهاية وافق على أن أدفع ٢٠٠ جنيه.

(٥)

من الأشياء الغريبة، عندما أكون محاصرا بعدد من حشرات الناموس، ثم أقتل واحدة منها، تختفي الأخريات! ما الذي يحدث بالضبط في مخ هذه الحشرة؟ هل يقول بعضها للبعض الآخر ان هناك خطر وانه ينبغي

fb/mashro3pdf

الاختفاء؟ أما النمل فيكفي أن تترك ملعقة بها بعض آثار مسحوق اللبن بالسكر، المستعمل منذ لحظات في كوب النسكافيه الصباحي، وتذهب إلى الحمام الصباحي، وتعود بعد بضعة دقائق، لتجد طابورا طويلا من النمل، قادم من مكان مجهول، متجها رأسا صوب الملعقة. ما الذي يحدث بالضبط في رؤوسهم الصغيرة؟

أما أغرب شيء حدث لي على الاطلاق مع مملكة الحيوانات، فكان قطة مايكل، جاري في شقة الزمالك، السويدي الأب والياباني الأم. كان قد قال لي إنه ينوي السفر في اجازة، ويرغب في ترك قطته في رعايتي لمدة أسبوعين، فوافقت مترددا. جاءت القطة وتفقدت حجرات الشقة، التي بدا بوضوح انها لا تروقها تماما، ولكنها كانت مضطرة.

ظلت القطة خلال اليوم الأول، بين نباتات الشرفة، رافضة الطعام، مكتفية بشرب الماء، ثم خلال اليوم الثاني اختفت تماما. بحثت عنها في كل مكان ولم أجدها. اعتقدت أنها قد تسربت من باب الشقة عند فتحه للمكوجي أو لبتاع اللبن. بحثت عنها في السلالم الأمامية والخلفية، وفي حديقة العمارة وجاراجها، ثم في الشارع أمام العمارة، وأمام العمارات المجاورة، بدون أي نتيجة.

ترددنا في الاتصال بمايكل في السويد لابلاغه بالنبأ المؤلم، حتى لا

fb/mashro3pdf

نفسد عليه اجازته، وقررنا الانتظار. مرّ ثلاثة عشر يوما، وفي اليوم الأخير قبل عودة مايكل من السويد، فتحت باب الشقة للخروج منها لأجد القطة أمامي، تنظر اليّ ببراءة شديدة، وبدون أي احساس بالذنب، ثم دخلت الشقة، كأن شيئا لم يكن. كيف عرفت أن صاحبها سيعود غدا؟ وأين كانت خلال كل تلك الأيام؟ لم أعرف أبدا. قيل لي فيما بعد إن القطط تستطيع أن تعدّ الأيام، لأنها تميّز بين النهار والليل، وأنها سبق لها أن لاحظت أن صاحبها في المرات السابقة، كان يغيب ثلاثة عشر نهارا متتاليا.

(٦)

فيما بعد سأنفق على عبد السلام الكثير من النقود لشراء ملابس، ولشراء خاتم ذهبي، وللذهاب مع أصدقائه إلى المطاعم. ثم لدفع مصاريف دورة دراسية في اللغة الإنجليزية في المركز الثقافي البريطاني عند نيل العجوزة. رغم كل ذلك جاء اليوم الذي اختفى فيه تماما. ذهبت للبحث عنه في محل الملابس الذي أصبح يعمل فيه بائعا في الفترة الأخيرة، وكان صاحب المحلّ يعرفني لأني كنت زبونا جيّدا اشتري من عنده الكثير من الملابس لإهدائها إلى عبد السلام. أعطاني عنوان مسكن والدته في إمبابة فذهبت إليها مع صديق مصري في سيارته. خرجت لنا الأم وقالت (سيبوا الولد يشوف مستقبله) ثم قالت الأخت الكبرى (ليه

fb/mashro3pdf

عاوزين تبوّظوا حياته) ثم اتجهت للصديق المصري قائلة (طيب هو أجنبي وخول لكن انت ابن بلده تعمل كده ليه؟)

حاولت أن أتحدّث اليهما بالعامية المصرية، الا أنهما تركتاني ودخلتا وأغلقتا الباب خلفهما. في تلك الليلة أخذت علبة أقراص منوّمة وارتميت على أرضية صالة الشقّة، الا أنني قبل أن أذهب في غيبوبة خرجت وألقيت نفسي على السلم أمام باب الشقة، فوجدني أبناء البوّاب في صعودهم وهبوطهم الدائم على السلالم، ونقلوني إلى المستشفى، حيث أنقذوني من الموت بعمل غسيل للمعدة. بعد شهور عرفت أن عبد السلام قد هاجر إلى أستراليا.

(٧)

كان عبد السلام منبهرا جدا بهذه القصّة، يحكيها لي مرارا وتكرارا كلما شعر برغبته في رفع روحه المعنوية، وعن طريقها أدركت أن عبد السلام مزدوج الميول الجنسية. كان متأكّدا من ذهابه إلى الجنّة بعد عمر طويل. كان يقول (مش ممكن يكون العذاب في الدنيا وفي الآخرة). كان يقول إن عبارة (كواعب أتراب) يشبّه بها الله أثداء الحور العين بثمار فاكهة الرمّان، المنتصبة في صدورهنّ، زيادة في الحسن والجمال، أي أنها ليست الأثداءً المترهّلة التي تكون للسيّدات المتقدّمات في السن،

fb/mashro3pdf

بل هي أثداء لفتيات في عمر الشباب اليانع، وهو ما ينتظر المسلمين في الجنة.

كان يقول لي إن كل الرجال في الجنّة سيكونون شبابا في سن الثلاثين، في منتهى الصحّة ولا يتعبون أبدا من الممارسات الجنسية، حتى لو وصل الأمر بالرجل إلى ممارسة الجنس مع كل سباياه السبعين في نفس اليوم. لم أعرف أبدا من أين جاءته فكرة أن كل الناس ستعود إلى الحياة في سن الثلاثين، وهي الفكرة التي كانت منتشرة تماما في مصر القديمة، حيث تذكر الأساطير أن كل الناس بعد الموت سيعودون من جديد إلى الحياة، وهم جميعا، رجالا ونساءً وشيوخا وأطفالا، في سن الثلاثين. حتى الأطفال. فمن يموت طفلا في مصر القديمة يعود إلى الحياة في سن الثلاثين.

لكن من جهتي أنا كنت أحاول أن ألفت انتباهه إلى موضوع لم يكن منتبها هو إليه البتّة، ألا وهو ما هي حقيقة أولئك الفتيات، بفرض أنهنّ موجودات فعلا. سألته هل هنّ يشعرن بالعواطف البشرية من حزن وفرح وغضب واحساس بالمهانة؟ يعني هل يفرحن إذا مارسن الجنس مع شباب غضّ، ويحزنّ إذا هنّ مارسنه مع شيوخ كبار في السن؟ كان يقول لي (إن الحور العين مثل السبايا في الحروب أو الجواري لاحق لهنّ في الشكوى).

fb/mashro3pdf

كنت أقول له إن كنّ الحور العين (السبايا) يمارسن العملية الجنسية بشكل آلي، فما هي المتعة في ذلك؟ إذ إن أي رجل يعرف إن المتعة الحقيقية هي في مشاركة الأنثى له. لم يكن يردّ. ثم حاولت ذات مرة احراجه بالسؤال عن إن كنّ يفهمن قدرة البشريات على استعمال الفم أو اليد في حصول الذكور على المتعة؟ عند هذا السؤال كان يلقّبني بالكافر. ولم أفهم لماذا عند هذا السؤال بالذات أصبحت كافرا. هل هنّ شخصيات مقدّسة في الدين الإسلامي؟ في الحقيقة كنت أبحث عن إجابات.

(٨)

٢٠١٥. مدّ لي خرطوم النرجيلة التي كنت قد جربتها سابقاً مع أصدقاء عندما كنت في أورفة (مدينة صغيرة على الحدود بين سوريا وتركيا)، أعجبته طريقة نفخي للدخان، وبدأتُ أتفنن. لم تمضِ سوى دقائق حتى بدأت أحسّ أن رأسي يدور ونظري يزوغ. اقترب منيَ أبو عبد الله، وبدأ يتحسّسني، ويمد يده تحت ثيابي. أعتقد أنني قلت (أريد أمي). جاوبني (أنا أمك وأبوك) وبدأ ينزع ثيابي.

أعتقدُ أنني دخلت في إغماءة لا أعرف مدّتها، ولكنني بدأتُ أصحو وأنا نصف عارٍ، وهو يصب ماءً مثلجاً على رأسي. بدأت أحسّ، وأول إحساسي كانَ ألماً شديداً في مؤخرتي. فهمتُ القصة، وبدأت أبكي، ولكنه هددني. قال إنه صورني، وإن تكلمت سيسرّب المقطع على كل

fb/mashro3pdf

الشبكات، قال (ولا تزعل نفسك أبدا فالكثير من الأولاد يعملوا اللي عملته اليوم).

خرجتُ لا أعرف كيف أمشي من الألم، وأحسست أن جميع النظرات موجهة إلي، وأن الجميع ينظر إلى مؤخرتي، ولكن لا أحد كان مهتماً، فالجميع ينشغلون بأمورهم. في غرفتي التي أتقاسمها مع سامر تفحّصت ثيابي الداخلية التي كانت ملوثة بالدم، ادّعيتُ المرض ولم أخرج طيلة النهار، وعند المساء قرّرت الهروب، واختبأتُ داخل خزانٍ كبير للمياه فوق سطح المهجع، طوال الليل وأنا مغمور بالماء إلى عنقي. لم تكن لدي خطة، وعند ظهر اليوم التالي لم أتحمل حرارة الخزان، فخرجت وعدت إلى غرفتي، وهناك كانوا يفتشون الغرفة ظناً منهم أنني هربت.

أخذني أبو عبد الله الكويتي والدعوي السعودي إلى مكتب أبو عبد الله، وكانت مفاجأتي الأخرى أن الدعوي يعرف ما حصل لي. وكانت مرة أخرى، واغتصبني الاثنان أمام أبو عبد الله. لم يكونوا يجرؤون على فعل ذلك مع أطفال المهاجرين، الذين كانوا يميّزونهم عنّا في كل شيء، من الأكل إلى أماكن النوم إلى المكافآت، في كل شيء كانوا يميزونهم رغم أننا نمتاز عن الكثيرين منهم بكل شيء.

كانوا يركّبون كاميرات في كل مكان بالحمامات وغرف النوم وأماكن التدريب والدراسة. حاول سامر أكثر من مرة أن نختلي بعيدا عن الكاميرات، وفي كل مرة كان يتلعثم ولا يقول شيئاً. وفي إحدى المرات باح لي بكل شيء، لقد اغتصبوه هو أيضاً. وأبو الليث وأبو قسورة كذلك

fb/mashro3pdf

تم اغتصابهم بالسيناريو نفسه الذي جرى معي.

كانت أكثرية المنتسبين من عائلاتٍ فقيرة جداً، وحسب ما تحدثوا معنا نفهم أنهم انتسبوا لأجل المال، ولمساعدة أهاليهم، ولعدم وجود مدارس. وأيضاً لأنهم الأكثر استهلاكاً للحبوب، التي كانت توزّع علينا لزيادة التركيز والانتباه. لكن المشرفين علينا أخذوا منا الدولارات التي أتينا بها من المعسكرات السابقة، قائلين لنا إنهم سيضعونها في أرصدتنا. لعل كل الأمر كذبة، والرصيد وهمي. هؤلاء الأولاد المنحدرون من العائلات الفقيرة هم الذين أرسلوهم إلى تل أبيض لمحاربة الأكراد.

بعد مرور شهرين أخذونا إلى معسكر أشبال العز في الطبقة غربي الرقة، وهناك جرى احتفال مهيب، حيث تمت المبايعة قبل خضوعنا للدورة النهائية لمدّة شهر جديد. هنا لم يقترب مني أحد، ولكنهم تابعوا نفس الفِعلة مع سامر، وكانوا يصورون كل شيء، كل شيء. انتحرَ اثنان آخران من مجموعة الكواتم، عن طريق إطلاق النار على بعضهما في التوقيت نفسه، أعتقدُ أنهما فعلا ذلك للسبب نفسه، الذي حاول سامر الانتحار من أجله وفشل. ثم أخذوني إلى قيادة المعسكر، وهناك عرضوا عليّ الشريط المصوّر الذي يبيّن كيف اغتصبني أبو عبد الله الكويتي، وأفهمونني لزوم أن أصمت قائلين (إذا تكلمت فأنت تعرف النتيجة، سنسرّب المقطع على كل الشبكات)!

(المصدر جريدة النهار اللبنانية عن جريدة النيويورك تايمز الأمريكية).

fb/mashro3pdf

(٩)

٢٠١٥. كانت (ف) ابنة الخامسة عشرة، تحاول الفرار مع عائلتها المؤلفة من تسعة أشخاص، عندما ارتفعت حرارة سيارتهم (الاوبل) القديمة. وبينما كانت تقف مع أمها وشقيقتيها، وهما في الرابعة عشرة والسابعة، يائسات بالقرب من سيارتهنّ المعطلة، مرّ موكب لمقاتلي (الدولة الاسلامية) وطوقهنّ. وحالا، فصل المقاتلون أفراد الأسرة من الرجال عن أفراد الأسرة من النساء، وأُخذت هي مع أمها وشقيقتيها، في شاحنات إلى البلدة الاقرب على جبل سنجار.

(وهناك فصلوني عن أمي، والفتيات غير المتزوجات أرغمن على الصعود في الباصات). عند انطلاق الموكب، لاحظت الفتيات والنساء أن النوافذ سدّت بستائر، يبدو أنها أَضيفت لان المقاتلين كانوا يخططون، لنقل أعداد كبيرة من النساء، اللواتي كن من دون برقع أو حجاب. تقول (ف) إنها نقلت إلى مدينة الموصل على مسافة ست ساعات، حيث جمعت النساء في قاعة الافراح جالاكسي.

فارات أخريات قلن إنه اضافة إلى الموصل، جمعت النساء في مدارس ابتدائية ومبان بلدية في تل عفر وصلاح ومدينة سنجار. مجموعة أخرى من النساء والفتيات نقلن إلى قصر من حقبة صدّام حسين وسجن بادوش ومبنى مديرية الشباب في الموصل. هناك كنّ يحتجزن لمدة أسابيع أو أشهر، ثم يحمّلن في اسطول الباصات نفسه مجددا ويرسلن

fb/mashro3pdf

في مجموعات أصغر إلى سوريا، أو إلى أماكن أخرى داخل العراق، حيث يعرضن للبيع والشراء من أجل الجنس.

داخل قاعة (غالاكسي) جلست (ف) أرضاً بين شابات أخريات جالسات، أو متكئات على الجدران في القاعة، في المجموع، تقدر أنهنّ كنّ نحو ١٣٠٠ فتاة أزيدية جالسات أرضا أو واقفات متّكئات، وهو عدد أكّدته نساء أخريات احتجزن في الموقع نفسه. كلٌ منهنّ وصفت كيف دخل ثلاثة مقاتلين من(داعش) القاعة، وفي يد كل منهم لائحة. هؤلاء طلبوا من الفتيات الوقوف، واحدة بعد الاخرى، ثم طلبوا منهنّ أن تذكر، واحدة بعد الأخرى، اسمها الاول واسم عائلتها مع سنها وبلدتها، وما اذا كانت متزوجة ولديها أولاد.

(ف) احتجزت لمدّة شهرين داخل قاعة (غالاكسي). وفي أحد الايام، جاء مسلحون وبدأوا يخرجون النساء الشابات، ومن كانت ترفض كانت تشد بالقوّة من شعرها. في الموقف كان اسطول الباصات نفسه في الانتظار لنقلهن إلى محطتهن التالية. ومع ٢٤ فتاة وامرأة أخرى، نقلت (ف) إلى قاعدة عسكرية في العراق. هناك في مقرّ القاعدة، سمعت كلمة (سبايا) للمرة الاولى.

قالت (ضحكوا وسخروا منا وهم يقولون أنتم صبايانا/ سبايانا). لم أكن أعرف معنى كلمة (سبايانا)، ولكن لاحقا تولى القائد المحلي لـداعش الشرح لنا، قال (أنتم لا حقّ لكم في أي شكوى، فكل ما هو ملكٌ لغير المسلم هو حقٌ مستباح للمسلم، وأنتم نساء الكفّار حق

fb/mashro3pdf

مستباح لنا، ولا حق لكم في رفض أي شيء نطلبه منكم، أو نمارسه معكم، أنتم مثل الحور العين في الجنّة، تسيرون حولنا عرايا طول الوقت فنغتصبكم كيفما أردنا). الفتيات الأصغر سنا والأجمل بعن في الأسابيع الأولى بعد خطفهن، أما الأكبر سنا والمتزوجات، فوصفن كيف نقلن من موقع إلى موقع قبل أن يتوافر عرض مناسب لشرائهن. كانت أصغرهن في الحادية عشرة.

عندما يصل الشاري كنّ يؤخذن واحدة تلو الاخرى إلى غرفة منفصلة. فيجلس الأمراء قرب الحائط وينادوننا باسمائنا. فكنا ندخل وكان علينا الجلوس على كرسي قبالتهم، وعلينا النظر اليهم . وقبل دخولنا كانوا ينزعون حجابنا أو أي شيء يمكن أن نستخدمه لتغطية أنفسنا. بل إنهم كانوا أحيانا ينزعون كل ملابس الفتاة، التي تبدو متمرّدة أو متذمّرة، أو تظهر مشاعر الرفض على وجهها، ويدخلونها عارية تماما وهم يضحكون. عندما وصل دوري، دخلت وجلست، فطلبوا مني أربع مرات أن أقف وأن التفّ حول نفسي، وكنت فقط بملابسي الداخلية.

(المصدر جريدة النهار اللبنانية عن جريدة النيويورك تايمز الأمريكية).

(١٠)

ما هي المشاعر التي تظهر على وجوه الحور العين؟ أم أن وجوههنّ جامدة لا تظهر عليها أي مشاعر؟ هل هنّ قادرات على البكاء؟ على الضحك؟ قادرات على تبادل أطراف الحديث مع عشّاقهنّ؟ وبأيّة لغة

fb/mashro3pdf

ستكون تلك الأحاديث؟ هل هنّ قابلات لأن يحملن أطفالا؟ هل لديهن أجهزة تناسلية داخلية من رحم ومبيض؟ أم أنهنّ يُكتفى منهنّ بأجهزتهنّ التناسلية الخارجية من مهبل وبظر؟ ولا داعي على الاطلاق للحمل والولادة ووجع الدماغ. أم أنهنّ سيمارس عليهنّ طقس الختان فيكنّ دون بظر؟ ذلك أن البظر هو عضو مكروه في ديانات مختلفة، ولدى شعوب وقبائل، والختان طهارة وحماية للآخلاق.

هل هنّ شقراوات أم سمراوات أم سوداوات؟ أم أنهنّ على كل لون وذلك لارضاء كل الأذواق؟ كان يردّ قائلا إنهنّ غالبا شقراوات. وهذا مفهوم طبعا فالشُقْرَة عنصر نادر في البلاد العربية الإسلامية. كنت أعرف من عبد السلام أنهنّ مضطرّات إلى البقاء عاريات تماما طول الوقت، وقد يكون هذا مقبولا في أصياف الجنة، التي قد تكون دافئة، لكن السؤال هو هل سيسمح لهنّ بارتداء ملابسهنّ عندما يكون الجوّ باردا في شتاءات الجنّة، أم أنهنّ مجبرات على البقاء طول الوقت عاريات تماما؟ حتى لو كانت شتاءات الجنّة باردة؟

أم أنهنّ ليس لديهن نهايات حسّيّة للأعصاب الطرفية؟ وأن أعصابهنّ الطرفية هي فقط لزوم استعمالها في تحريك العضلات من انقباض وانبساط؟ على ما يبدو أن هذه الأسئلة كلها كانت تتجاوز الحدود المتعارف عليها في الموضوعات المقدّسة. في مصر بدت لي النساء

fb/mashro3pdf

بشكل عام أقرب إلى صورة الحور العين، بحيث يفترض الرجال فيهنّ أنهنّ لا يصلحن الا للمتع الفراشية فقط لا غير، فليس لهنّ لا عقل ولا قلب ولا أفكار ولا مشاعر. وإنّما هنّ جسد فقط لا غير.

(١١)

هذا الكلام يذكّرني بأديب فرنسا أندريه جيد Gide الذي كان يقول إن أفضل أسفار العهد القديم هو سفر (نشيد الأنشاد)، الذي يتغزّل فيه مؤلفه بجسد محبوبته، واصفا بالتفصيل جمال هذا الجسد، من شعر رأسها إلى أصابع قدميها. النص يقول

(إن الثديين كحبتيّ كمّثرى، أو كحبتّي رمّان، منتصبتين في مكانهما غير متدلّيتين، والبطن مستديرة كثمرة نبات قرع العسل، والردفين مثل البطيختين)

الا أن الكنيسة في العصور الحديثة بدلا من الإبقاء على هذا السفر أو حذفه، هذا السفر الجنسي المثير - كما قيل - لغرائز الشباب، قرّرت تشويه الحقائق إذ فسّرت كل هذه الأوصاف الجسدية، بكونها الأوصاف التي يتغزّل بها المؤمن المسيحي في كنيسة المسيح.

fb/mashro3pdf

كانت اللحظة التي سمعت فيها هذا التصريح العجيب لكاهن الكنيسة هي نفس اللحظة التي تأكدت فيها من لا جدوى كل طقوس وممارسات الديانات المختلفة. فكل هذه الديانات تفعل ما يفعله النعام من وضع الرأس في الرمال. وقد وصلت لاحقا إلى الفقد التام لكل أشكال الايمان الديني المتعارف عليها.

عندما قرأت ما كتبه جان بول سارتر في كتابه (ما هو الأدب) عن روايات (جيد)، وبالمناسبة فالاسم ينطق بتعطيش الجيم كما يقول العرب، أدركت أنه يعبّر عمّا بداخلي. قال: كل الروايات التي تتحدّث عن المشاعر الدفينة لشخصيّاتها، تحمل في الغالب قدرا لا بأس به من المشاعر الحقيقية للمؤلف. هذه الدعوة التي دعى إليها جيد للتحرّر من كل مقتنياتنا المادية، من إرثنا العائلي، من علاقاتنا الأسرية المفروضة علينا، هذا هو بالضبط ما أردت أن أفعله عندما بدأت التمرّد على أسرتي.

التخلّي التام عن كل المشاريع النفعية، رغم أن هذا لا ينطبق على أفراد أسرتي، حيث أننا لأجيال متتالية كان انتماؤنا أقرب إلى الطبقات الفقيرة منا إلى الطبقات المتوسّطة، لكني كنت أنظر حولي فأجد حكايات تدعو إلى الرثاء، كأن يضطر الشخص إذا كان والده محررا وموثّقا لعقود البيع والشراء، أن يصبح الابن مثل أبيه محرّرا وموثّقا لعقود البيع والشراء. ثم تلك النظرة غير المفهومة إلى أن كل من لا يتزوّج ينبغي أن تكون له حياة

fb/mashro3pdf

سرية يلعب فيها دورا شاذا، كأن (يكون/ تكون) (مثلي/ مثلية) الجنسية.

يستطرد سارتر قائلا: إن الخطر الحقيقي في حياة الفرد ليس أن يخوض بلده غمار حرب عالمية، أو أن يتعرّض جزء من العالم خلال حياته لمصائب كبرى مثل المجاعات والأوبئة والبراكين والزلازل، أو أن يكون أقلية عرقية من السود في أمريكا. إن الخطر الحقيقي الذي يمكن للفرد أن يتعرّض له دون أن تكون له أحيانا أي فرص للنجاة منه والخلاص، هو أن ينشأ في أسرة متزمّتة أخلاقيا، في وسط اجتماعي تسيطر عليه المفاهيم الدينية المغلوطة التي كانت سائدة منذ عشرة أو عشرين قرنا. هنا يكمن الخطر الحقيقي.

(١٢)

عندما قرأت (الغذاء الأرضي) وجدت أنّه يتكوّن من تنويعات غريبة الشكل من الأنواع الأدبية، حيث نجد هجينا من قوالب شعرية بطل استعمالها مثل قالب البالاد balade، مع فقرات من كراسة مذكراته الشخصية، وملحوظات عشوائية كتبها أثناء رحلاته التسكّعية. في المخطوطة الأصلية التي تمّ تعديلها في الطبعات التالية هناك أشكال من الشعر الحر لن تصبح معروفة الا بعد عشرة أو عشرين أو ثلاثين عاما من وفاة جيد Gide، كان الناشر قد تردّد في نشرها وبالتالي تم حذفها من الطبعات الأولى.

fb/mashro3pdf

الا أن الخط الروائي في هذا العمل هو أن المؤلف كان يقوم برحلة. وأن هناك شخصيات رمزية تعود إلى الظهور عبر الصفحات. والملمح الرئيسي في العمل هو مهاجمة الأخلاقيات التقليدية. إن هذا العمل هو انجيل إفاقة الحواس، تلك الحواس التي كانت قد فقدت حيويتها بعد قرون طويلة من سيطرة الحسّ الديني المتزمّت على الأخلاقيات. كانت اعترافات جيد بحقيقة ميوله الجنسية المثلية، أقرب في الشكل إلى الاعترافات التي يمارسها المؤمنون المسيحيون في الطقس المسمّى بهذا الاسم في الكنيسة الكاثوليكية، حتى أن بعض محلّلي أعماله اعتبروا أن الغذاء الأرضي هو نوع من التطّهر (الكاتارثيز catharsis).

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الفصل العاشر

(١)

٢٠١١. الحياة في فرنسا قد تكون أحيانا على هذه الدرجة من التعقيد، بسبب الخوف الحالي المتفشّي بين الفرنسيين، ليس فقط من الاجرام المنتشر في أوروبا الحالية، بل كذلك من الأعمال العدوانية المتوقّعة من حركات الارهاب، ومن المتعصبين الدينيين العنصريين. كنت قد احتجت إلى شراء دواء من صيدلية، وكنت في مدينة صغيرة (١٠٠ ألف نسمة) بها أثناء النهار عشر صيدليّات، لكن بعد الساعة الثامنة مساء، لا تكون بها الا صيدلية واحدة، تفتح أبوابها طوال الليل لخدمة حالات الطوارئ. هكذا يأتي الدور على كل صيدلية من صيدليات المدينة، لتفتح أبوابها أثناء الليل، مرة واحدة كل عشرة أيّام.

لكنك لا تستطيع أن تعرف أيّ الصيدليات العشرة الموجودة في المدينة هي تلك التي تفتح أبوابها هذا المساء، الا بالاتصال بقسم شرطة

fb/mashro3pdf

المدينة، ثم تطلب مقابلة المسؤول عن الأمن خلال هذه الليلة، ثم تأخذ منه موعدا بعد ساعة أو بعد ساعتين، وتذهب لمقابلته في قسم الشرطة، ومعك كل الأوراق الشخصية الدالة عليك، بطاقة شخصية وباسبور، بالاضافة إلى الروشتة الطبية الموجود بها اسم الدواء، ففي فرنسا لا يتم صرف الدواء الا بروشتة طبية، يتم بعد ذلك تصوير أوراقك الشخصية بعد أن تكون قد تقدّمت بطلب رسمي وملأت استمارة بيانات.

بعد كل تلك الاجراءات يمكنك أن تعرف اسم وعنوان الصيدلية المفتوحة أبوابها تلك الليلة، ثم يتصّل مسؤول الأمن الليلي بالصيدلية ليبلغها ببياناتك، ثم تذهب إلى هناك حيث يتم استجوابك عبر ميكروفون مثبّت إلى جوار باب الصيدلية، لمعرفة إن كانت البيانات التي تقدّمها تتطابق مع البيانات التي تلقّاها الصيدلي من قسم الشرطة، وإن كنت أنت الشخص المقصود، أم أن غيرك ينتحل شخصيتك، بالاضافة إلى كل ذلك هناك آلة تصوير سينمائي أو فوتوغرافي مثبّتة أعلى رأسك تلتقط لك صورك. بعد كل تلك الاحتياطات، تخرج نقودك وتقدّمها من فتحة ضيقة فُتِحَت للتوّ في نافذة جانبية إلى جوار الباب، وتستلم الدواء. كما يقول المصريون (عمار يا مصر).

fb/mashro3pdf

(٢)

٢٠١١. لكن الحياة في فرنسا هي أيضا حيث لا يكون هناك أي سقف للحرّية. فكل ما تريد أن تفعله يمكنك أن تفعله لكن بعد معرفة المكان المناسب الذي يمكنك أن تفعله فيه. سأحكي لكم هنا عن مدينة العراة الموجودة في جنوب فرنسا، والمعروفة جغرافيا باسم (كاب داجد). تحاول كل مقاهي المدينة أن تجذب انتباه أكبر عدد من السكان الصيفيين والزوار الموسميين. وقد لجأ مقهى (جنّة عدن) وهذا هو اسمه الجديد، بعد تغيير اسمه القديم (مقهى هيمنجواي)، إلى بدعة جديدة جذبت إليه مئات الزبائن كل ليلة. فأنت عندما تدخل هذا المقهى/ بار وهو مستطيل الشكل بطول حوالي عشرين مترا، وعرض حوالي عشرة أمتار، تجد كاونتر البار المعدني إلى يمينك، الذي يمتدّ حوالي عشرة أمتار، ويصطف أمامه حوالي عشرين مقعدا مرتفعا، من نوعية تلك المقاعد ذات السيقان العالية المرتفعة، التي توجد عادة أمام كاونتر البارات، ثم تجد إلى يسارك حوالي عشر موائد يحيط بكل منها ثلاثة أو أربعة كراسي، ثم تجد مسافة خالية من أي شيء، كانت حتى العام السابق تشغلها بعض أجهزة الكومبيوتر والتلفزيونات الخاصة بألعاب الفيديو جيمز.

من المعروف لكل زوّار المكان أن هذه المدينة لا تنطبق عليها أية قواعد محدّدة على الاطلاق في أي شيء، لا أخلاقية ولا دينية ولا

fb/mashro3pdf

اجتماعية، فكل شيء قابل للحدوث، طالما كانت كل الأطراف راضية، فإذا لم تكن راضيا يمكنك أن تغادر المكان. وأنت إذا درت في الشوارع مرتديا ثيابك أثناء النهار ستلفت انتباه الناس، أما في المساء وأثناء الليل، فليست هناك قاعدة، فإذا درت عاريا تماما في كل مكان طوال الليل فغالبا لن تلفت انتباه أحد. الجديد هذا الصيف هو أن المالك الجديد للمقهى قام برفع أجهزة الفيديو والتلفزيون، ووضع بدلا منها مجموعة من ستة أقفاص، طول كل منها حوالي مترين، وارتفاعه متر، وعرضه حوالي متر. هذه الأقفاص مفتوحة وعليها ما يشبه الستائر الشفّافة.

عندما دخلت كان كل رواد المقهى يرتدون ثيابهم، وكانت الأقفاص خالية، فجلست إلى الكاونتر أحتسي كأسا من البيرة. ثم قامت فتاة مع رجل وذهبا إلى أحد هذه الأقفاص ودخلاه، ثم نام الرجل فوق جسم الفتاة، وهو ينزع عنها ثيابها، وأدخل عضوه فيها، والناس منشغلون بما يقولون بعضهم لبعض، وبما يأكلون ويشربون. هذه الأقفاص هي لممارسة الجنس علنا في وجود الآخرين، وهي ممارسة ممتعة لعدد من الناس، الذين يجدون متعة في كونهم يفعلون هذا وبعض العيون تراقبهم. يسمّونهم الاستعرائيّين exhibitionist، وإذا لم تكن ترغب في المراقبة يمكنك تحويل نظرك إلى جهة أخرى، فأنت لست مجبرا، أو أن تغادر المكان. قبل مغادرتي المكان دخل رجلان معا إلى أحد هذه الأقفاص.

fb/mashro3pdf

(٣)

وبصفتي فرنسيا وعملت في السياحة المصرية، يهمني في هذا المقام أن أذكر أن أحد أهم عيوب الشعب الفرنسي هو أن السيّاح الفرنسيين متعجرفون وسريعو التهيّج لأسباب واهية، يقولون لك دائما إنهم دفعوا في فرع الشركة في باريس من أجل الحصول على أفضل خدمة، وإنهم مصدومون من رداءة كل شيء، فكتالوج الشركة يقول إن الكبائن بها شرفات تطلّ على النيل، في حين أن الحقيقة هي أن الشرفة لا يمكن بأية مقاييس أن يطلق عليها هذا الاسم، إذ لا يتعدّى عرضها عشرين سنتيمترا، فأنت تكون جالسا في الكابينة لتضع قدميك فقط لا غير في الشرفة. يقولون إن ما يقدّم لهم في البوفيه المفتوح في وجبات الافطار والعشاء أقل بكثير مما يقدّم على المراكب الأخرى، رغم أنهم دفعوا أكثر مما دفعه الآخرون. وهكذا. لا نهاية لشكاواهم. هذه هي خلاصة تجربتي معهم.

لكن هل يصح أن أقول هذا على بني جلدتي؟ ماذا يمكنني أن أقول مثلا عن الشعوب الأوروبية الأخرى؟ هل يمكن القول إن الألمان شعب منظّم؟ أو إن الايطاليين شعب مرح؟ لا أعتقد حاليا أن هناك صفة عامة يمكن أن تطلق على شعب بأكمله. لكن في الحقيقة هناك صفات غالبة على أفراد بعض الشعوب. أثناء عملي كتور ليدر كنت دائما أحسد زملائي من الجنسيات الأخرى على صفات شعوبهم. هناك مثلا بعض

fb/mashro3pdf

المواقف تجعلك تعتقد أنه بدلا من انفاق عشرة آلاف فرنك في رحلة سياحية لمدة أسبوع في مصر، كان من الأفضل للشخص أن يدفع هذا المبلغ ثمنا لزيارة الأطبّاء النفسيين.

(٤)

تقريبا في كل المدن الأوروبية التي يزيد عدد سكّانها على ربع مليون نسمة، ستجد متحفا للآثار المصرية. وهذا معناه مئات المتاحف التي تعرض آثار حضارة مصر التي يعتزّ بها العالم أجمع. الا أن أكبر المجموعات حجما هي الموجودة في اللوفر بباريس، ثم في البريتيش ميوزيام بلندن، والمتروبوليتان في نيويورك، وبرلين في ألمانيا، وتورين في ايطاليا. عند زيارتي منذ أعوام قليلة لمدينة ليفربول، زرت متحف مدينتها المعروف باسم متحف العالم World Museum، حيث فوجئت بحجم القسم المصري فيه. لكم أن تفخروا يا أبناء النيل بحضارة أجدادكم التي يزورها تلاميذ المدارس في كل مدن العالم. لو أن الأوضاع في مصر كانت أكثر استقرارا، لأصبحت مصر هي الدولة السياحية رقم واحد في العالم دون أدنى شكّ.

حتى في مدينة مثل مارسيليا، التي يغلب عليها الطابع التجاري، يوجد متحف للآثار المصرية، حيث فوجئت مرة أخرى في الحقيقة، بحجم المجموعة الأثرية المصرية، التي تحمل هنا اسم كلوت بك، وهو مؤسس مدرسة الطب في قصر العيني، في عشرينات القرن التاسع عشر،

fb/mashro3pdf

وكان قد أقام في مصر (زيّ حالاتي) حوالي عشرين عاما، في الوقت الذي كان فيه من الممكن لأي شخص، أن يشتري من الأسواق المصرية قطعا أثرية مصرية أصلية، حيث إن أول قانون مصري يمنع الاتجار في القطع المصرية الأصلية، لم يصدر الا سنة ١٩٢٢، بعد اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون في الأقصر، ورغبة هوارد كارتر في السفر بها كلها إلى إنجلترا.

مجموعة كلوت بك الأثرية تشغل طابقا كاملا من المبنى الضخم، الذي كان مخصّصا حتى منتصف القرن العشرين لمشروع خيري، لاقامة وإعالة وعلاج العجائز من فقراء المدينة، كان معروفا باسم La Vieille Charite. كان كلوت بك يعود بمجموعته جزءا جزءا كل عام، في إجازته الصيفية، على الباخرة من الأسكندرية إلى مارسيليا، وكان الخطّ الملاحي بين المدينتين منتظما، والرحلة لا تستغرق أكثر من أربعة أيام.

هنا الآن أمامي ما لا يقل عن عشرة آلاف قطعة من التماثيل بكافة الأحجام، من الصغير المعروف باسم الأوشابتي الذي لا يصل طول بعضه الا إلى طول الأصبع البشري، إلى الكبير الذي يصل طوله إلى ضعف الحجم البشري، والتوابيت الخشبية والحجرية، وقطع الأثاث الجنائزي، وقطع المجوهرات التي يكثر فيها الذهب واللازورد والكورنالين، والأقمشة الكتّانية والصنادل الجلدية، وأوراق البردي. لقد وهب كلوت بك هذه المجموعة الأثرية الضخمة إلى الحكومة الفرنسية عند عودته النهائية إلى فرنسا.

fb/mashro3pdf

(٥)

دعوني أذكر لكم هذا الموضوع. تعالوا نتخيّل معا فرضية نظرية، لا شعبيّة كبيرة لها على الاطلاق في بلاد الشرق الأوسط، ولكنها هي الفكرة السائدة تماما في بلدي فرنسا، وفي غيرها من بلاد أوروبا وآسيا وأمريكا الشمالية وأمريكا اللاتينية وأستراليا، وهي البلاد المشهود لها بالكفر والعياذ بالله. الفرضية تقول إنه ليست هناك عدالة إلهية قادمة من السماء. الفرضية تقول إن مظاليم العالم الثالث الذين ينتظرون الخلاص على يد الله، أي الذين ينتظرون أن ينصفهم الله من الظلم الواقع عليهم منذ آماد بعيدة جدا، ينتظرون العدل الإلهي منذ آماد بعيدة جدا، قد اكتشفوا أن لا شيء يحدث على الاطلاق، وبالتالي يستمر الظَلَمَة في ظلامهم وفي غيّهم ساخرين من المظلومين.

في فرنسا تحوّل الشعب الفرنسي كله إلى المسيحية، بعد أن كان هذا الشعب الوثني يعبد آلهة روما القديمة، حدث هذا في نهايات القرن الرابع الميلادي، عندما قرّر الامبراطور الروماني ثيودوسيوس، أن تصبح المسيحية هي الديانة الرسمية للامبراطورية الرومانية، ثم أصبح الشعب الفرنسي يكرّس جزءا كبيرا من نقوده في بناء الكنائس، وأصبح يخصّص جزءا كبيرا من وقته في عبادة اله المسيحية، يصلّي إليه نهارا وليلا كلّما حلّت به أزمة أو مصيبة، أي في الحروب والمجاعات والأوبئة، إلى آخره، ولم يحدث أبدا خلال ١٤٠٠ سنة أن ردّ اله المسيحية على

fb/mashro3pdf

صلواتهم بكلمة واحدة، ولم يحدث أبدا خلال ١٤٠٠ سنة أن استجاب اله المسيحية، لأي طلب من طلبات الشعب الفرنسي.

ثم حدث في لحظة مصيرية، أن قرّر الشعب الفرنسي المظلوم، أنّه بدلا من اللجوء إلى اله المسيحية، الذي لا يردّ على أحد خلال أربعة عشر قرنا، قرّر الشعب الفرنسي سنة ١٧٨٩ الانتقام بنفسه مّمن ظلموه، وكان من بينهم الملوك من أسرة لويس السادس عشر، والمئات من النبلاء حاملي الألقاب الشرفية كونت ودوق وأرشيدوق، بالإضافة طبعا إلى عدد كبير من الكهنة والقساوسة ورجال الجيش المستفيدين من بقاء الظلم في ظل الملكية.

في تلك اللحظة المصرية انطلقت الغوغاء في الشوارع، وسادت البلاد موجة شديدة من الفوضى والسلب والنهب، خلال أكثر من عشر سنوات، تمّ خلالها قتل الآلاف من البشر، ونهب منازلهم، وكان من بينهم بعض شرفاء الناس. وجّهت الغوغاء جهودها إلى تحطيم الكنائس والقصور الملكية في أماكن عدّة.

عندما ساد قانون الغاب لفترة سنوات، وحاول كل شخص أن يحصل على حقوقه الضائعة بقوة الذراع، أدرك كل الناس أهمية أن يسود بينهم قانون يحترمه الجميع، ولا يستثنى منه أحد على الاطلاق، فالوزير يقف في نفس الطابور مع الغفير، للحصول على تذكرة في المترو. ومنذ ذلك الوقت يعيش الشعب الفرنسي في استقرار نسبي، وتوفّر حكوماته المتتالية الحياة الكريمة لأكبر عدد ممكن من أفراد الشعب.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الفصل الحادي عشر

(١)

في القاهرة عاش نيرفال عاما واحدا في أحد الأحياء الشعبية القريبة من الأزهر والموسكي. قيل له إنه لا بدّ أن يشتري جارية وذلك حتى لا يخاف منه جيرانه الرجال على زوجاتهم، فاشترى جارية جميلة من أصول حبشية، وما أدراك ما هو الجمال الحبشي، ويقال إنه أعتقها وتزوّجها، ويقال إنه أسلم حتى يتزوّجها، ثم قبل أن يغادر مصر نهائيا وهبها قدرا كبيرا من المال.

حلمت طويلا أثناء مراهقتي بتقليده. حبّذا لو عاد الزمن إلى منتصف القرن ١٩ حتى أتمكن من شراء جارية. مثل علي بابا في ألف ليلة وليلة. أما الفتيات الباريسيات اللائي أحببهن فكان من بينهن تلك التي حملت اسم حبيبة عمري كله، التي فقدتها تماما في ظروف غامضة. أوريلي. وضعها جيرار دي نيرفال Nerval ضمن مجموعة فتيات أخريات، في رواية حكى لنا فيها عن ذكريات شبابه أسماها (بنات النار). لكنه

fb/mashro3pdf

خصّص لها وحدها أكبر عدد من فصول روايته تلك وكان هذا دليلا كافيا على مدى قوّة تأثيرها على حياته.

(٢)

٢٠٠٢. بسبب حرارة الجو يمكنني بسهولة أن أشمّ رائحة العفن منتشرة في كل الأجواء، كأنني أعيش كابوسا لا نهاية له، لا أستيقظ منه. عفن تحلّل المواد العضوية من مأكولات، وعفن تفسّخ جثث القطط والكلاب التي تدهسها السيّارات ولا تجد من يرفعها من الطريق، بل أحيانا حتى حدث أن وجدت جثث حمير. هم يكتفون فقط بإزاحتها إلى كوم الزبالة.

هذه هي الحقيقة التي عايشتها بشكل يومي لمدة لا تقل عن عشرين عاما، مدة إقامتي في القاهرة بين أوائل الثمانينات، وبداية القرن الجديد. ولا أحد يهتم بذلك، حتى لو تحدّثت عنه مع مجموعة من المثقّفين الذين يدّعون الفهم، لا تجد أحدا منهم يلتفت إلى هذه الظاهرة السلبية، التي تؤدّي إلى انتشار الأمراض بسبب انتشار الحشرات.

منذ أوائل الثمانينات كنت أرى عربات الكارو التي تجرّها الحمير، تأتي في الصباح الباكر ليقوم صبيتها، تحت إشراف معلّم، بجمع قمامة المنازل بكفاءة كبيرة، من أمام أبواب الشقق السكنية، مقابل مبالغ تافهة، قد لا تتعدّى في أغلب الأحيان ورقة بخمسة جنيهات، ومع ذلك كان هناك من يفاصل هؤلاء الغلابة في هذا المبلغ ولا يدفع لهم الا ثلاثة

fb/mashro3pdf

جنيهات. كان هناك سلامة وهو الريّس (٥٠ سنة)، ويعمل معه بعض أولاد أخوته وأخواته، ومنهم سعيد (٢٥ سنة) الذي كان يأتي إلى سلّم الخدم في شقتي لجمع زبالتي.

ثم حدث أن غبت ثلاثة أشهر في إجازة صيف، وعندما عدت أبلغني سعيد بأن خاله (سلامة) قد مات، في الخمسين من عمره، رغم أنه لم يكن يشتكي من أي مرض عضوي، بل على العكس كان يتمتّع، حتى آخر يوم في حياته، بلياقة بدنية عالية، فكان مثلا في عمارتنا المصونة وفي غيرها من عمارات شارعنا المصون، يصعد الستّة أدوار ويهبطها محمّلا بأكياس الزبالة، ويكرّر الصعود والهبوط ست مرات في مناور العمارة الضخمة الستّة، ثم يحدث هذا في ست عمارات أخرى على الأقل في نفس الشارع.

هل يمكن تخيّل حجم هذا المجهود البدني غير الإنساني، ٦ أدوار × ٦ مناور × ست عمارات = حوالي ٢٠٠ طابق يصعدها سلامة كل يوم. فوجئت بأن سلامة ترك وراءه تسع فتيات، فهو الآخر رغم أنه مسيحي قبطي الا أنه كان يرغب في الحصول على ولد، كما يفعل غيره من المصريين المسلمين من نفس طبقته الشعبية. المشكلة الحقيقية هي أنني اكتشفت أن بنات سلامة الستة الأكبر سنا، قد تزوّجن من أبناء خالاتهنّ وعمّاتهنّ، في تكرار لنفس المصيبة التي أدّت مع أرمانيوس في الأقصر، إلى انجاب أولاد متخلّفين عقليا.

fb/mashro3pdf

(٣)

أردت مساعدة بنات (سلامة) الثلاث اللائي لم يتزوّجن بعد، في الحصول على عائد شهري، فهو ليست له أيّة معاشات من أيّة جهة حكومية أو غير حكومية، فقررت زيادة المبلغ الشهري إلى عشرة جنيهات، ثم في عامي الأخير في مصر إلى عشرين جنيها، فجاء أحد جيراني يشتكيني قائلا إننا (أي الخواجات) سنفسد أهل البلد (أي المصريين) عليهم (أي الطبقة الراقية)، لأننا سنجعلهم يعتادون على كسب المبالغ الطائلة، دون بذل أي مجهود على الاطلاق، فهم في الحقيقة لا يفعلون أي شيء أكثر من جمع الزبالة، وأضاف (مع أنهم يكسبون الملايين كل شهر من تجارة الورق والكرتون والقماش والبلاستيك والزجاج والمعادن التي يجدونها في الزبالة).

طلبت من (سعيد) زيارة أرملة سلامة. فذهبنا بسيارة أجرة إلى سفح جبل المقطّم حيث مشينا في شوارع متعرّجة قذرة، يعيش فيها الناس في بنايات وشقق وأسطح منازل ومخازن، تمتلئ عن آخرها بكل أصناف القمامة، بشكل يدعو إلى الاعتقاد بأنهم، لا يمكن لهم تجاوز سن الخمسين، بسبب كل هذه الميكروبات والحشرات التي تعيش معهم داخل بيوتهم، فيصابون بكل أنواع الأمراض، ويموتون بها في سن مبكّر.

بالإضافة إلى شيء آخر عرفته ولم أكن على علم به رغم طول إقامتي في القاهرة، وهو أن من يقومون بممارسة هذه المهنة هم في الغالب

fb/mashro3pdf

من الأقباط، الذين يربّون الخنازير ويقومون بإطعامها، ببقايا النفايات العضوية التي لا يُقْبِل الا الخنزير على أكلها. وحيث إن الخنزير حيوان نجس، فلا يوجد مسلم يقبل العمل في هذه المهنة النجسة. سبب غريب فعلا. أنا بشكل عام لا أفهم أسلوب المصريين في خلط كل شيء بالدين.

ثم جاءت الحكومة في آخر أعوامي في القاهرة لتضيف قيمة رمزية هي ثمانية جنيهات، إلى الفاتورة الشهرية لاستهلاك الكهرباء، مقابل تكفّلها هي بجمع القمامة. وطبعا ككل حكومات العالم الثالث التي لا يحاسبها أحد، قامت الحكومة بجمع هذه المساهمة الشهرية الرمزية، دون أن تقوم بأداء دورها الذي جعلت الناس تدفع لها من أجل أن تقوم هي به، وهو الجمع الدوري المنتظم للقمامة، وتوقّف الناس من الجيران عن دفع شهرية الزبّال، التي أصبحوا يدفعونها للحكومة، فانفجرت شوارع الزمالك بأطنان يومية من القمامة.

(٤)

٢٠٠٨. بعد عودتي النهائية إلى فرنسا ببضعة أعوام، ظهر في الشرق الأوسط وباء حمّى الخنازير، وقرّرت حكومة مصر إعدام كل خنازيرها، حتى قبل التأكد من إمكان انتقال فيروس الخنازير إلى البشر، وهو ما تفعله عادة حكومات العالم الثالث، اصدار القرارات المتعجّلة غير المدروسة، التي لا يناقشها فيها أحد، فأقامت مذبحة هائلة للخنازير في كل مناطق سكن الزبّالين، خاصة في العشوائيات المحيطة بالقاهرة.

fb/mashro3pdf

شاهدت الصور على بعض الفضائيات، حيث كانوا يطلقون الرصاص الحيّ على الخنازير في الحظائر، وهي تجري في محاولة يائسة لتنقذ حياتها. ثم جُمِعَت الجثث بالآلاف وألقيت في حفرات ضخمة ثم ألقيت على الجثث كميّات كبيرة من الجير الحيّ ثم ردمت. بعد ذلك بعام أو اثنين أعلنت منظّمة الصحّة العالمية ان فيروس الخنزير لا ينتقل من الخنازير إلى الانسان، لأن الفيروسات تؤمن بالتخصّص. ثم كتب لي صديق مصري في واحدة من رسائله اليّ أن الزبّالين لم يعودوا يجمعون القمامة العضوية، لأنه لم تعد هناك خنازير تأكلها، فتراكمت هذه الزبالة العضوية في الشوارع حتى أصابها العفن.

(٥)

قال أرمانيوس (هي ابنة عمّي وقد بلَغَت الخامسة والعشرين ولم يتزوّجها أحد، ولا يجوز لي أن أتركها تعنّس، حرام) ثم أضاف (هكذا قال أبي)

قلت (في فرنسا لا يمكن للأب أو للأم التدخّل في مثل هذه الاختيارات على الاطلاق، حتى لو كان الشاب أو الشابة بالكاد في الثامنة عشرة من العمر، فما بالك بشاب في الثلاثين يكسب قوته بنفسه وغير مضطر إلى العمل في دكّان أبيه أو ورشته)

قال (ليس للمصريين أيّة حرّية في اختيار أي شيء، فالشاب لا يستطيع أن يختار مهنته، بل في الغالب يقف إلى جوار أبيه في المحل أو

fb/mashro3pdf

في الورشة بمجرّد بلوغه السادسة عشرة من العمر، أو حتى قبلها)

إن المصري مسلما كان أم مسيحيا لا يستطيع أن ينتقل بين الديانتين، ولا يستطيع أن يعلن الحاده، ولا حتى يستطيع أن يعلن شكوكه المشروعة في وجود اله أو في وجود رسل ورسالات سماوية. وفي حالة أرمانيوس يمكنني أن أضيف، أن المصري في قرى مصر ومدنها الصغيرة، لا يستطيع أن يختار شريكة حياته، إذ ليس له الحقّ في ذلك، لأن من يختارها له هو أبوه أو أمّه.

حكى لي كمال أرمانيوس القبطي الأورثوذكسي، كيف أنه كان قد أحبّ فتاة مسيحية من الطائفة البروتستانتية، تعيش معهم في نفس المدينة، فرفع أبوه يده عليه وصفعه بها، رغم أن كمال كان في الثلاثين من العمر، وذلك لأنه لا يجوز لشاب أورثوذكسي أن يتزوّج من فتاة بروتستانتية.

ليس هذا فقط بل إن كمال أحب بعد ذلك فتاة قبطية أورثوذكسية، أي أنها من نفس الملّة، وتسكن في نفس شارعهم، وهو في الحقيقة ليس شارعا وإنما هي كانت حارة متفرّعة من شارع المحطّة، فرفع عليه أبوه يده مرة أخرى وصفعه بها، إذ إن كمال حسب تقاليد العائلة موعود منذ طفولته لابنة عمّه قدّيسة. نعم اسمها قدّيسة. فيما بعد حدث ما كنت أتوقّعه إذ أنجبت قدّيسة طفلا مصابا بالتخلّف العقلي.

fb/mashro3pdf

(٦)

المصريون يحيّرونني دائما، ولا يتوقّفون أبدا عن إدهاشي. سواء بالمعنى الايجابي أو بالمعنى السلبي لهذه العبارة. كنت قد فكّرت في الذهاب إلى صديقي كمال أرمانيوس، لزيارته في شقّته الجديدة، بعد انقضاء شهر عسله الذي لم يدم الا أسبوعا واحدا. سألت فعرفت أن الشقّة تقع شرق خطّ السكة الحديد. عندما تمّ إنشاء السكة الحديد في الصعيد، في أواخر القرن الماضي، كانت الخطوط تمر خارج المدن، لتلافي ضوضائها قدر الإمكان، أما بعد النمو العمراني، دخلت خطوط السكك الحديدية إلى وسط المدن.

غادرت المركب السياحي الواقف في مرسى الشركة السياحية أمام معبد الأقصر. فضّلت تجنّب المرور في شارع بائعي التحف الفرعونية لأنهم سينادونني ويصرّون على أن أحتسي معهم القهوة أو الشاي. مررت بطريق الكورنيش حتى ميدان أبو الحجّاج، ثم في شارع المحطة حتى ميدان المحطة، حيث عبرت كوبري المشاة الخشبي فوق خطوط السكك الحديدية. أجلسني كمال معه في صالون الشقة بكراسيه الضخمة المذهّبة الأطراف التي تتزاحم داخل الغرفة الضيّقة. عندما هنّأته بزواجه قال بالفرنسية التي لا تفهمها زوجته

(لم أكن أرغب في الزواج من هذه الفتاة ابنة عمّي، لكني كنت مضطرا إلى تقبّلها كقدر محتوم)

fb/mashro3pdf

فعلت مثلما يفعل هو أحيانا أثناء عملنا معا، لو تأخّر وصول أوتوبيس الشركة لنقل السياح من المركب إلى الكرنك أو العكس، ولطمت وجهي بباطن اليدين.

أنجبت قدّيسة (ينطقونها جدّيسة) زوجة أرمانيوس طفلا ذكرا أسموه (جدّيس)، وفرحت به الأسرة فرحا شديدا ولكن فقط لمدة سنوات قصيرة، ذلك بسب أنه عند بلوغه سن الذهاب إلى المدرسة الابتدائية، اكتشفوا أنه مصاب بالتخلّف العقلي، وأنه لا يستطيع متابعة الدروس الأولى في الفصل الأول الابتدائي، المتعلّقة بتعلّم الحروف الهجائية للغة العربية. هم طبعا كانوا قد بدأوا يلاحظون أن قدّيس منذ سنته الأولى لا تظهر عليه بسهولة علامات الانتباه المعتادة في الأطفال العاديين. قال لي أرمانيوس ذلك ذات مرة. كان الطفل (قدّيس أرمانيوس) قليل الانتباه جدا لما يحدث حوله من منبّهات سمعية وبصريّة. ولكنهم كانوا يغالطون أنفسهم حتى بلغ سن الخامسة.

(٧)

اصطحبني أرمانيوس ذات مرّة، إلى الكنيسة القبطية الأرثوذكسية في الأقصر. كنا في صباح يوم جمعة، ولم أكن قد عرفت بعد أن هناك قدّاسات كنسية ثلاث مرّات في الأسبوع، صباح الأربعاء والجمعة والأحد، حتى يستطيع شعب الكنيسة أن يحضر وفقا لظروف عمله أو وظيفته. فوجئت أولا بحجم الشعب، إذ وجدت مئات من البشر داخل

fb/mashro3pdf

الكنيسة. قال لي أرمانيوس (إن ثلث سكان المدينة هم من الأقباط). لم أعرف مدى دقّة هذه النسبة. فوجئت ثانيا بالضوضاء الهائلة الصادرة عن هذا الشعب، فإذا كان الاسلام يمنع النساء من حضور صلاة الجمعة، فإن الكنيسة الأرثوذكسية تخصّص نصف الكنيسة إلى يمين الداخل للنساء والأطفال، والنصف الآخر للرجال.

لكن المنظر أمامي يقول إن أحدا لا يلتفت إلى ما يفعله الكاهن، وأن لا أحد ينصت إلى ما يقوله الكاهن. الأطفال يجرون وهم يلهون بين داخل الكنيسة وخارجها. والسيّدات يتبادلن الأحاديث كما لو أنهنّ كنّ في منتدى للرأي والرأي الآخر. كان قد سبق لي الإنصات إلى الألحان القبطية، التي يغنّيها هذا الشعب بكلمات قبطية. سألت أرمانيوس (هل تفهم هذه الكلمات؟) قال (لا أفهمها لأنها باللغة القبطية)، سألته (والقدّاس هو كذلك باللغة القبطية؟) قال (نعم) سألته (وما هي نسبة الناس في هذه الجموع الغفيرة الذين يفهمون هذه اللغة؟) قال (قد تكون النسبة هي واحد أو اثنين في المئة) قلت (فهمت الآن السبب في عدم الإنصات).

fb/mashro3pdf

الفصل الثاني عشر

(١)

بعد الحادث الإرهابي في الدير البحري في نوفمبر ١٩٩٧، انقطعت السياحة عن مصر لمدة عام، ثم عندما عادت بعد ذلك كانت سيّارات الشرطة ترافق سيارات السياحة في كل مكان، من الإسكندرية إلى أسوان، عند التحرّك داخل تلك المدن من الفنادق إلى المواقع الأثرية، تكون كل سيارة سياحة برفقة سيارة شرطة. طبعا كان التحرّك خارج المدن أكثر خطرا من التحرّك داخلها. فعند التحرّك مثلا للذهاب من أسوان إلى معابد أبو سمبل، أو للذهاب من قنا إلى معبد دندرة، كانت أوتوبيسات السياحة تسير في قافلة، قد يصل عدد أتوبيساتها أحيانا إلى خمسين أوتوبيسا، على أن تكون في صحبة عدد كبير من سيارات الشرطة موزّعة على ثلاثة أماكن، في مقدمة الفوج وفي وسطه وفي مؤخّرته.

لم تكن هناك مشكلة واضحة في هذا النظام في أي مكان، الا في بحيرة ناصر، حيث أصبحنا مضطرين إلى الإبحار سويّا، أي أن المراكب

fb/mashro3pdf

السياحية الخمسة التي تنقل السيّاح على البحيرة أصبحت تبحر معا. نتحرّك معا ونقف معا. المشكلة كانت أكثر وضوحا عند زيارة المعابد قليلة المساحة، مثل معبد عمدا Amada الذي لا تتعدّى مساحته مئتي مترا مربّعا، بطول ٢٠ مترا، وبعرض عشرة أمتار تقريبا. فلو عرفنا أن على كل مركب من المراكب الخمسة كان يوجد في المتوسّط ١٠٠ سائح، أي باجمالي ٥٠٠ سائح، وأنه من المفروض أن يقوم هؤلاء السيّاح الخمسمائة كلهم، بزيارة المعبد في نفس الوقت، لك أن تتخيّل حجم التزاحم والتدافع بالأكتاف، والاشتباكات بالأيدي بين المرشدين، وأحيانا حتى بين السيّاح.

(٢)

بمناسبة الحديث عن النوبة، ففي كل معابد منطقة النوبة المحيطة ببحيرة ناصر، التي يقل فيها جدا التفتيش من قبل مفتشّي وزارة السياحة، لسبب بسيط وهو أين سيقيم المفتّشون، وكيف سيتنقّلون بين الأماكن الأثرية؟ هناك يطلب منك كل العاملين في مناطق معابد بحيرة ناصر، مثل موظّفي قطع التذاكر والغفراء، أن تتعاون معهم على تحسين دخولهم، فيطلب منك موظفو قطع التذاكر مثلا أن تقطع عشرين تذكرة فقط، مع أن مجموعتك تتكوّن من ثلاثين شخصا، يطلبون منك أن تعطيهم ثمن ٣٠ تذكرة ولا تحصل منهم الا على ٢٠ تذكرة فقط لا غير.

هم يريدون بذلك أن يحصلوا لأنفسهم على أثمان عشر تذاكر

fb/mashro3pdf

يضعونها في جيوبهم. هم يجرّبون في كل مرة وكلهم أمل في أن تكون قد تغيّرت طباعك السيّئة، أو أصبح قلبك أكثر حنانا وعطفا على فقراء الأرض، وأصبحت مثل عدد كبير من المرشدين المصريين الذين قد يتجاوبون معهم ويفعلون هذا فعلا. أنت ترفض طبعا، لأنها ليست مشكلتك أن مرتّباتهم ضعيفة، بالإضافة إلى أن كل السيّاح الذين معك يرغبون في الحصول على تذاكر دخول هذه المعابد، التي تحمل أسماء المعابد، وقد تحمل صورة فوتوغرافية للمعبد. السيّاح يضمّون كل هذه التذاكر معا في ألبومات يحتفظون بها كذكرى للرحلة إلى مصر.

ثم هناك عدا موظفي التذاكر تجد أمامك غفر المعابد والمقابر الذين يضعون لافتات (ممنوع التصوير) في أماكن بارزة عند المداخل، لكنهم يأتون اليك قبل دخولك المكان للاتفاق معك، على أن تقول للسيّاح أنه يمكنهم التصوير، رغم وجود اللافتة، مقابل إعطاء الغفر الغلابة اكراميات مناسبة، هي نصف ثمن تذكرة التصوير المعلن عنها رسميّا. كل مرة يعيدون على مسامعك هذه الميلودراما الفاقعة، خاصة لو عرفوا أنك تعرف العامية المصرية (مش لاقيين ناكل/ ولادنا بيموتوا من الجوع/ مش لاقيين نلبس/ حتى شوف هدومنا)، كأنها أغنية جماعية ألّفوها ولحنّوها سويّا وغنّوها في مقاطع منفردة.

fb/mashro3pdf

(٣)

٢٠٠١. في الساعة الثالثة من بعد الظهر كنت في وسط بلد مدينة القاهرة، في أحد المقاهي الموجودة في منطقة الألفي، التي تقع في أحد الشوارع الصغيرة المتفرّعة من شارع ٢٦ يوليو، التي منع فيها مؤخّرا مرور السيّارات، وأصبحت مقتصرة على المشاة. كنت أجلس مع صديقين مصريين، أشرب فنجانا من القهوة التركي المظبوطة، بينما كان صديقاي يدخّنان الشيشة. بصراحة رغم حبّي للشيشة، الا أنني أتعجّب دائما من انعدام وعي المصريين، الذين يستعملون كلهم نفس المبسم، دون مراعاة على الاطلاق لمسألة احتمال أن تنتقل اليهم عدوى الأمراض التنفّسيّة المنتشرة في مصر.

في لحظة واحدة انفجر جمهور القاعة الصغيرة الجالس أمام جهاز التلفزيون مصفّقا، ثم فوجئت بانفجار جماهير كل المقاهي التي تقع في محيط مقهانا في موجات متتالية من التصفيق والتهليل. في البداية اعتقدت أنهم يتابعون مباراة في كرة القدم بين فريقين أحدهما يتمتّع بشعبية كبيرة، ثم ألقيت نظرة متعجّلة على شاشة جهاز التلفزيون المعلقة قرب سقف القاعة، لأفاجأ بمنظر اشتعال النيران في برجي التجارة العالميين في نيويورك. ثم المناظر العجيبة التي تكرّرت إذاعتها عشرات المرّات لارتطام الطائرتين بالبرجين.

لم أكن أعرف حتى تلك اللحظة أن أمريكا مكروهة في مصر إلى

fb/mashro3pdf

هذه الدرجة. كنت أعرف أنها مكروهة في العالم كله، الا أن ردود أفعال الشرقيين بشكل عام، مبالغ فيها جدا، خاصة المسلمين في باكستان وأفغانستان، وبشكل خاص جدا في كل البلاد العربية، بسبب تأييد أمريكا المطلق لإسرائيل، وبسبب إجهاضها بالفيتو الأمريكي لكل القرارات التي كان المجتمع الدولي ينوي اتخاذها ضد إسرائيل. طلب مني صديقاي المصريان سرعة مغادرة المقهى معهما عائدا إلى شقتي في الزمالك. قالا إنه في مثل تلك الحالات قد ينفلت العيار ويصاب أبرياء من الأجانب بأذى على يد الغوغائية. نصحاني بعدم مغادرة شقتي لبضعة أيام.

(٤)

في عامي الأخير في مصر، ذهبت للقيام بزيارة طالما رغبت في القيام بها، وهي زيارة المعبد اليهودي (السيناجوج) في شارع عدلي في قلب القاهرة، وذهب معي صديق مصري منعته الشرطة من الدخول لسبب مجهول وتركوني أدخل وحدي دون قيد أو شرط. هذه الشرطة المصرية لها تصرّفات شاذة جدا، فكيف لمصري ألاّ يستطيع الدخول في موقع أثري داخل عاصمة بلاده في حين يكون من المستطاع لأجنبي أن يفعل ذلك؟ وكيف لا يثور المصريون على هذه الأوضاع المقلوبة؟ المهم قابلت داخل المعبد رجل يهودي اسمه سمعان جلست بالقرب منه، وتبادلنا حوارا باللغة الفرنسية التي ظهر أن هذا الشخص يجيدها إجادة تامة.

fb/mashro3pdf

حكى لي كيف وأنه في السبعين من عمره لا يزال يعيش في نفس البيت الذي ولد فيه في أوائل الأربعينات، في أحد الأحياء الشعبية في القاهرة. وكيف أن إقامة دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨ كانت وبالا على اليهود المصريين، الذين لم يكونوا أبدا جالية أجنبية، والذين كان أغلبهم يحمل الجنسية المصرية. هو رفض ترك مصر وبقى فيها رغم اضطهاده وتعذيبه عندما كان شابا صغيرا في سنوات المواجهات العسكرية بين مصر وإسرائيل، ١٩٥٦ و١٩٦٧. ثم قال إن الأوضاع لم تتحسّن نسبيا الا بعد كامب دافيد.

ذكرتني قصة هذا اليهودي المصري بقصة درايفوس، وهي واحدة من قصص عديدة تدلّ على اضطهاد اليهود في كل مكان، حتى في فرنسا قلب العالم الحرّ كما تدّعي. كان الضابط ألفريد درايفوس النقيب في الجيش الفرنسي، الذي يحمل الجنسية الفرنسية، ويدين بالديانة اليهودية، قد اتهم سنة ١٨٩٤ بتهريب وثائق حربية إلى الجيش الألماني، ولكن الحقيقة هي أنه كان مظلوما وذلك لأن التحريات كانت قد كشفت أن المتهم الحقيقي بتهريب تلك الوثائق هو ضابط آخر فرنسي مسيحي، الا أن السلطات الفرنسية فضّلت حجب هذه الأنباء عن الشعب الفرنسي، وتقديم كبش فداء يهودي.

كانت موجة العداء لليهود في فرنسا، بل في أوروبا كلها في ذلك الوقت، قد جعلت القضاة يحكمون ببراءة المسيحي، وبإدانة اليهودي والحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبّدة، وبالنفي إلى جزيرة تابعة لفرنسا.

fb/mashro3pdf

وسائل الاعلام الفرنسية حتى منتصف القرن العشرين كانت تحاول تجاهل هذه القضية.

فما كان من الأديب الفرنسي إميل زولا في ذلك الوقت الا أن سخّر قلمه ومجهوده في الدفاع عن درايفوس، الا أن ذلك لم يعجب الأغلبية الفرنسية التي كانت تعادي السامية علنا في المجتمعات والأوساط الفرنسية، فاندلعت اشتباكات دمويّة عنيفة بين الأغلبية الفرنسية والأقلية اليهودية في عشرين مدينة فرنسية. ثم حدث ويا للعجب أن توجهت حملة عدائية ضد زولا نفسه، وتوجّه بعض أفرادها إلى شقته بالدائرة التاسعة بباريس، حيث قاموا بوضع غازات سامة في مدفأة الشقة، ووجدت جثّتا زولا وزوجته في فراشهما مخنوقين بالغاز السام صباح اليوم التالي.

(٥)

١٩٩٢. أتذكر الآن بوضوح شديد، كيف حدث يوم ١٢ أكتوبر، حوالي الساعة الثالثة وعشر دقائق ظهرا، حين كنت أقوم بمصاحبة مجموعة سياحية، في زيارة لمسجد السلطان حسن الواقع بالقرب من ميدان القلعة، عندما اهتزّت الأرض بشكل عنيف جدا لمدة لا تقل عن دقيقة كاملة. جرى كل الناس في إتجاه باب الخروج، لكننا فوجئنا بصوت قادم من أعماق الأرض، وكأنه زمجرة حيوان خرافي محبوس في باطن الأرض منذ آلاف السنين، وهو الآن على وشك الخروج من الأسر.

ثم كانت هناك كذلك أطنان من الأتربة التي تساقطت عن جدران هذه

fb/mashro3pdf

المساجد المملوكية والعثمانية في منطقة ميدان القلعة، تلك الجدران التي لم ينظّفها أحد منذ قرون طويلة، ولا يقوم المطر شبه المنعدم في منطقة القاهرة بتنظيفها، كما تفعل عادة الأمطار في غير مصر من بلاد الكرة الأرضية، فمصر هي من أقل دول العالم مغيائية، أي من حيث معدّل سقوط الأمطار السنوي بالمقارنة بمساحتها الكلية.

وصلنا إلى فندق الميريديان حيث كنت أقيم مع مجموعتي السياحية، بعد حوالي أربع ساعات من مغادرتنا مسجد السلطان حسن، لأن الأوتوبيس السياحي استغرق كل هذه الساعات في رحلة العودة، لأن كل شوارع القاهرة كانت قد امتلأت عن آخرها بالبشر الخائفين من العودة إلى منازلهم، فأغلب منازل الأحياء الشعبية في القاهرة في حالة سيّئة جدا من حيث الأساسات ومتانة الجدران. قضى الناس عدة ليال في الشوارع والحدائق العامة، وقد كانوا محقّين في مخاوفهم فقد حدثت هزّات أرضية أخرى من توابع الهزّة الأولى، وكنت ذات مرّة في شقتي بالزمالك فشعرت وكأن شخصا ما قد حرّك الكنبة التي كنت جالسا عليها. قيل بعد ذلك إن هناك حوالي ألف منزل منهار، وحوالي عشرة آلاف ضحيّة بشرية ماتت تحت الأنقاض.

(٦)

كنا نمرّ بالطريق الصحراوي بين القاهرة والإسكندرية، وكان علينا ضمن البرنامج، أن نتوقّف في أحد أديرة وادي النطرون، ولحسن الحظ

fb/mashro3pdf

كان المرشد قبطيا، أو من الجائز أنه لهذا السبب بالتحديد كانوا قد اختاروه لهذا البرنامج. وكان له أخ يقضي فترة الاختبار قبل أن يقبل انضمامه إلى نظام الرهبنة. الغريب هو أنه رغم كون الأخ في فترة اختبار يحاول أن يعرف فيها إمكانية أن يعيش بقية حياته في عزلة تامة عن العالم، الا أنه كان لا يزال يحتفظ بالموبايل.

اتقفنا على أن ينتظرنا عند مدخل دير البراموس، ويصاحبنا في جولة سريعة حول المباني الأثرية داخل الدير. كانت اللحظة التي كنا فيها على وشك مغادرة المكان هي الساعة المخصّصة لصلاة الساعة السادسة، فحسب تقاليد مسيحية قديمة تنتقل عبر الأجيال في كتاب الأجبية، وهي كلمة يونانية agapos تعني محبّة، ينبغي على المسيحيين ممارسة سبع صلوات كل يوم، ٦ ص، و٩ ص، و١٢ ظهرا، و٣ م، و٦ م، و٩ م، ثم منتصف الليل. كنا في الساعة السادسة مساء. لم يستطع أي منا متابعة طقوس الصلاة التي لم تدم الا ربع ساعة.

الا أننا لاحظنا أن الرهبان كلهم، ويبلغ عددهم حوالي خمسين راهبا، كانوا في نهاية الصلاة، قد اصطفوا في خمسة صفوف متوازية، وقام الأول في الصف الأول بحركة سريعة بالانحناء أمامهم جميعا، حتى وصل إلى المركز الأخير في الصف الأخير، في نفس الوقت الذي قام فيه الثاني الذي كان إلى جواره بنفس الفعل، ثم الثالث، وهكذا قام الخمسون راهبا

fb/mashro3pdf

بالانحناء كل منهم أمام كل زملائه. قال المرشد إن الكلمة المستعملة لهذا الطقس هي (مطانيا) القبطية، وتعني الانحناء، ويستعمل معها الفعل العربي (يضرب)، فيقال (يضرب مطانيا)، عندما ينحني راهب أمام راهب آخر.

(٧)

إذا كنت تعمل مرشداً سياحياً أو تورليدر ولديك فى البرنامج زيارة معبد إدفو، فأنت فى محنة شديدة! تنقلك هذه الحناطير مع زبائنك من المرسى السياحي إلى المعبد، ثم عندما تخرج من المعبد بعد أن تكون قد أنهيت زيارته مع مجموعتك، يكون دمك قد تفرّق بين القبائل. فعندما تخرج من المعبد لن تجد أبداً العدد الكافى من الحناطير لنقل كل زبائنك معاً للعودة إلى المركب، وأنت لا تستطيع أن تغادر المعبد بجزء من المجموعة، على أن يلحق بك جزؤها الآخر فيما بعد، فهذا لا يجوز بسبب مسئولية المرشد أو التور ليدر المباشرة عن سلامة كل أعضاء مجموعته.

هناك المئات من الحناطير، تجوب المدينة فى اتجاهين محددين، إما من المراسى السياحية إلى المعبد، أو من المعبد إلى المراسى السياحية، المشكلة الأولى هى أن هذه الحناطير تحول رائحة المدينة كلها إلى

fb/mashro3pdf

رائحة براز وبول الخيول التى تقود تلك الحناطير، وأينما كنت فى تلك المدينة فإن تلك الرائحة تهل عليك. أنا لا أعرف لماذا لا يطبق نظام شديد فى مسألة جمع فضلات تلك الحيوانات فى أكياس تعلق على ظهورها، أو على أفخادها، مثلما يحدث فى العديد من بلاد العالم السياحية التى تستعمل مثل تلك الحناطير (فيينا مثلاً)، حيث ما تزال تلك الحناطير وسيلة انتقال سياحية معروفة.

أما المشكلة الثانية فهي أنه عندما يخرج المرشد أو التور ليدر من المعبد، قد يكتشف اختفاء واحد أو أكثر من العربجية، وقد يكون السبب هو أنه فى طريق الذهاب إلى المعبد كان قد احتال على أحد السياح، وحصل منه على مساعدة لوجه الله، مثلاً ورقة بمائة جنيه، وحيث إن هذا المبلغ هو أكثر مما يكسبه هذا العربجى خلال يوم عمل، ففى هذه الحالة يكتفى هذا العربجى بهذا المبلغ كمكسب لهذا اليوم، وبالتالى يختفى بقية اليوم، وملعون أبو السائح وكذلك أبو المرشد وأبو التور ليدر الذى قد يضطره أحدهم إلى العودة إلى العمل.

أو قد يكتشف المرشد أن مجموعة العربجية الذين نقلوه هو وزبائنه فى الذهاب إلى المعبد، موجودين الآن عند المرسى فى انتظار نقل مجموعة أخرى من السياح، وأنهم يرسلون إلى المرشد عربجية آخرين من أقاربهم (أولاد أعمامهم وكذلك أولاد أخوالهم)، حيث أن

fb/mashro3pdf

مهنة العربجة هى أكثر المهن انتشاراً فى المدينة، لأنها من أكثر المهن السياحية فى المدينة التى تدر عائداً مجزياً، وعلى المرشد أو التور ليدر فى تلك الحالة أن يكتشف بنفسه، وعلى مسئوليته وحده، ودون مساعدة من أى شخص آخر، صلات القرابة تلك بين العربجية وأولاد أعمامهم وكذلك أولاد أخوالهم، حيث إنهم لا يقولون لك أى شئ بشكل عام، ناهيك عن ذكر صلات القرابة تلك، وهي كما هو معروف وواضح مسائل شخصية جدا.

أو قد يكتشف المرشد أو التور ليدر أن عربجيته الأصليين موجودون أمام المعبد ولكنهم يتجاهلونه، وعندما يلحّ فى الكلام مع أحد هؤلاء العربجية، الذى ينكر بشدة أية علاقة له بهذا المرشد أو ذاك التور ليدر، يأتى عربجى آخر ويجذب المرشد من كم قميصه ويذكر له همساً، أن عربجيته موجودون، ولكنهم غير راضين عن مبلغ الإكرامية الذى قبضوه منه فى المرة السابقة.

(٨)

غالباً ما تكون درجة الحرارة عند قمة الجبل مساءاً تحت الصفر، حتى لو كنا فى شهور الصيف، وذلك بسبب ارتفاع القمة بمسافة أكثر من ألفيّ متر عن سطح البحر، ولذلك تلزم ملابس ثقيلة لمواجهة هذه البرودة،

fb/mashro3pdf

وعادة ما كنت عند القمة أنشغل بتدفئة قدمى فى مقهى جيد الغلق، فى حين ينشغل سيّاحي بأداء بعض الصلوات الجماعية مع غيرهم من سياح العالم، رغم انتماءاتهم الدينية المختلفة، فالمكان مقدس لكل الديانات التى تعترف بالنبى موسى، لأنه المكان الذى تسلم فيه الألواح المقدسة من الله، التي يحفظها الله منذ الأزل خلف كرسي عرشه.

كل هذا كان جميلا جداً، إلا أن الشئ السخيف فعلاً هو زيارة داخل دير سانت كاترين، فى الفترة الصباحية المخصصة للمجموعات السياحية، فقط لمدة ثلاث ساعات، من الساعة التاسعة صباحاً إلى الساعة الثانية عشرة ظهراً، وسبب السخافة هو وجود أعداد هائلة من البشر تقف طوابير طويلة أمام باب واحد فقط صغير جداً، مخصص لغرضين اثنين فى نفس الوقت، الدخول والخروج، وهو ما يخلق حالة من الفوضى والتدافع والتزاحم، وسقوط الأطفال وكبار السن تحت الأقدام، كما لو كنا فى معركة تفقد المكان كل قدسيته، رغم وجود عدد كبير من رجال الشرطة لتنظيم المسألة.

ثم كانت المشكلة الأخرى هى اصرار كل المرشدين السياحيين على التحدث إلى مجموعاتهم بكل تفاصيل المكان، وبكل تفاصيل تاريخ المكان، داخل المكان نفسه وبصوت مرتفع جداً، مما يجعل الطوابير تنتظر في بعض الأحيان لمدة ساعة دون حركة، كما أن ضيق المكان

fb/mashro3pdf

الشديد كان يجعل الضوضاء مستحيلة. كان ينبغى على المرشدين إلقاء تعليقاتهم خارج المكان، وتوزيع خرائط صغيرة بخط السير داخل الدير، وهكذا يمكن للجميع الدخول فى طابور واحد متصل متحرك ببطء ودون توقف وفى صمت تام. بسّ مين يسمع؟

fb/mashro3pdf

الفصل الثالث عشر

(١)

كنت طوال حياتي مولعا بدراسة الخرائط، خاصة لو أمكنني الحصول على خرائط قديمة عمرها بضعة قرون، لمدن أو سواحل بحرية، ثم مقارنتها بما هو متاح حاليا على جوجول إيرث. مثلا عند مصبّ نهر النيل في البحر المتوسّط، كنت أتوقّع أن تكون دمياط على شاطئ البحر المتوسّط، لأني كنت قرأت عنها أنها كانت أهم موانئ مصر في العصور الإسلامية المبكّرة، الفاطمي والأيوبي والمملوكي، في الوقت الذي كانت فيه الإسكندرية أقل في الحجم والأهمية بكثير عن دمياط. لأن أهم مناطق التجارة بين مصر المملوكية وجيرانها كانت تأتي من الشرق. فإذا بي أفاجأ بأن دمياط لا تقع على شاطئ البحر المتوسّط بل تقع على بعد حوالي عشرة كيلومترات من البحر.

قيل لي إن هذه الظاهرة هي بسبب أن مياه النيل الذي كان يجري مندفعا بامتداد مجراه، حاملا معه الطمي والغرين، يكون هنا عند دمياط قد فقد

fb/mashro3pdf

تماما قدرته على اندفاع مياهه، بسبب مقاومة أمواج البحر له، فكان يترك الطمي والغرين يترسّبان هنا، وكان هذا الترسيب السنوي يباعد كل عام المسافة بين المدينة والبحر، بمعدّل لا يقل عن بضعة أمتار كل عام، مما أدّى في مدّة ٥٠٠ عام إلى أن تصبح المسافة هي بضعة آلاف الأمتار.

لقد توقّفت هذه الظاهرة الطبيعية الآن فمنذ الانتهاء من بناء السدّ العالي جنوب مدينة أسوان، أصبح كل الطمي يتجمّع في البحيرة التي تراكمت فيها المياه إلى الجنوب من السدّ، لأنه لا يستطيع أن ينفذ من الأنفاق والتربينات في جسم السد. هذا هو أيضا السبب في ازدهار مصيف رأس البر الذي كان حتى منتصف الستّينات، تغمره مياه الفيضان تقريبا كل عام، مم كان يضطر أهله إلى الاكتفاء ببناء عشش من البوص، قابلة للهدم ولاعادة البناء كل عام، بعد الانتهاء من مواسم الفيضانات. أمّا الآن فالمصيف يعجّ بالعمارات المبنية بالطوب.

ثم أنت عندما تقرأ في التاريخ، تجد أن حصن بابليون الذي كانت تقيم فيه القوّات الحربية الرومانية، الذي حاصره ثم احتلّه عمرو بن العاص عند فتح مصر في القرن السابع الميلادي، كان يقع في ذلك الوقت على حافة الضفة الشرقية للنيل، على بعد أمتار قليلة من الماء، حتى أن بعض بوّابات الحصن، كانت تسمح بدخول السفن إلى نطاق الحصن، لتفريغ شحنات الغلال والمحاصيل الزراعية، القادمة عبر شبكة الترع، من مناطق دلتا النيل المختلفة.

فإذا بهذا الحصن الآن في نهاية القرن العشرين، على بعد بضعة

fb/mashro3pdf

مئات من الأمتار من مجرى نهر النيل، وهي مئات الأمتار التي تشغلها في الوقت الحالي المنطقة السكنية الواقعة بين قسم شرطة مصر القديمة (اسم الحيّ)، وشريط سكك حديد مترو أنفاق القاهرة عند محطّة مار جرجس. إن مياه النيل في اندفاعها كانت ترسّب الطمي بكميّات أكبر على الضفة الشرقية مم كانت تفعل على الضفّة الغربية، وهو ما كان يباعد كل عام مسافة متر أو أكثر بين الحصن وضفّة النيل.

(٢)

إن طوبوغرافية فرنسا أكثر تعقيدا بكثير من طوبوغرافية مصر، لأن فرنسا بها مساحات شاسعة من المرتفعات الجبلية، التي ترتفع إلى آلاف الأمتار فوق سطح البحر، وتسقط عليها مياه الأمطار تقريبا طول العام، ثم بعد المرتفعات تأتي المنخفضات، التي تندفع تجاهها مياه الأمطار لتكوّن الأنهار، وفي الحقيقة فإن فرنسا تمتلك عددا كبيرا من الأنهار، مثل الرون واللوار والجارون والسين، بالإضافة إلى نهر الراين الذي تكون فرنسا على احدى ضفّتيه في حين تكون ألمانيا على ضفّته الأخرى.

لكن الملاحظة الغريبة التي أريد أن أكتب لكم عنها هنا هي أنك إذا أخذت باخرة سياحية من القاهرة إلى أسوان، فستجد أن خضرة وادي النيل بين القاهرة ونجع حمّادي، مرورا بمدن محافظات بني سويف والمنيا وأسيوط وسوهاج، تتركز بنسبة ٩٩٪ في مناطق غرب النيل، ثم بداية من نجع حمّادي ينقلب الحال بحيث تصبح الخضرة متركّزة

fb/mashro3pdf

بنسبة ٩٩٪ في مناطق شرق النيل، بين مدن قنا والأقصر وكوم أومبو وأسوان. صحيح أن هناك مدينتين وحيدتين تقعان هنا غرب النيل، هما اسنا وإدفو، الا أنهما تحيط بهما الصحراء من كل جانب. فما هو السر في هذه الظاهرة الطوبوغرافية العجيبة؟

(٣)

رغم أنها من مواليد ١٩٣٠، لكنها كانت في السبعين من عمرها لا تزال تتذكّر أنها في طفولتها، كانت تسكن عمارة قديمة في كورنيش سوهاج، بشرفات واسعة مطّلة على النيل، وكانت منذ الثلاثينات وحتى أوائل الخمسينات، ترى ثلاث بواخر سياحية، تمرّ في مواعيد ثابتة قادمة من القاهرة في طريقها إلى أسوان، وأحيانا العكس، تسير متهادية ببطء إلى حدٍ ما، وهي مزيّنة بعقود من الأضواء الكهربائية، هي السودان، ودامييتا/ دمياط، وروزيتا/ رشيد، وقد تتوقّف أحيانا واحدة من هذه البواخر لقضاء الليلة في سوهاج، فيقوم طاقم المركب من المصريين، بدعوة وجهاء الناس من أهل سوهاج، مع فرقة من الموسيقى الشعبية الفولكلورية المصرية، لقضاء سهرة في صالون المركب مع زبائن المركب من السيّاح الأجانب.

بعد أن حصلت على ليسانس آداب قسم لغة انجليزية سنة ١٩٥٢، تمّ تعيينها في سكرتارية محافظ القاهرة للشؤون الخارجية، وكانت محافظة

fb/mashro3pdf

القاهرة في ذلك الوقت تشغل الطوابق الأرضية، من نفس المبنى الذي شغلت بعض طوابقه العليا، منذ منتصف الستّينات، مكاتب الاتحاد الاشتراكي العربي، على كورنيش النيل عند ميدان التحرير، إلى جوار فندق هيلتون النيل، وهو نفس المبنى الذي أصبح لاحقا مقرا للحزب الوطني، قبل أن يحترق في أحداث ٢٠١١.

أثناء عملها كمرافقة لضيوف المحافظة، قامت خلال الستّينات، بفضل إجادتها التامة للغة الإنجليزية، بمرافقة عدد من أهم ضيوف مصر في تلك الفترة. كانت قد ذهبت في رحلة نيلية من القاهرة إلى أسوان، مع المؤرّخ الإنجليزي أرنولد توينبي وزوجته، على ظهر مركب تابعة لفندق الهيلتون، قد تكون هي الباخرة ايزيس أو قد تكون الباخرة أوزوريس، لم تعد متأكدة. الباخرتان روزيتا وداميتا اختفيتا تماما من الوجود، فأنا لم أرهما ولم أسمع من أحد أنه رآهما، أمّا الباخرة أسوان فكنا لا نزال نراها راسية على النيل عند الأقصر. لكن الباخرتين إيزيس وأوزوريس، كانتا لا تزالان تعملان في الرحلات النيلية، وكان مرساهما عند فندق هيلتون الأقصر.

(٤)

عندما تقوم برحلة نيلية من القاهرة في اتجاه الصعيد، فإن المنظر المتكرّر غالبا كل كيلومتر واحد فقط لا غير، من المائة وعشرين كيلومترا التي تقطعها خلال حوالي عشر ساعات من الإبحار في يومك الأول، هو

fb/mashro3pdf

منظر المآذن التي تنطلق منها خمس مرّات في اليوم الدعوة إلى الصلاة، ثم مناظر آلاف السيدات الريفيّات اللائي يحملن الملابس أو أواني الطبخ إلى مياه النيل لغسلها فيها، والى جوارهنّ غالبا يمكننا أن نرى الأطفال يسبحون ويلهون في مياه النهر. مناظر الحقول الخضراء التي تحفل بالزراعات الشتوية مثل البرسيم والقمح والذرة.

شاهدنا على الضفّة الغربية أولا قمم أهرامات الجيزة الثلاثة، وهي تظهر وتختفي خلف قمم المباني السكنية شاهقة الارتفاع، ثم شاهدنا على الضفة الشرقية ثانيا في المنطقة الصناعية المحيطة بحلوان، مداخن مصانع الحديد والصلب والكيماويات والأسمنت، التي أقامها عبد الناصر في الخمسينات والستينات بمعاونة السوفييت، التي يبدو بوضوح أنها تلوّث الأجواء، لكنها بحمدالله جنوب القاهرة، أي أن الرياح الشمالية لا تحملها إلى سكان القاهرة، ويكون تأثيرها الملوّث قد خفّت حدّته عند وصولها إلى مناطق التجمّع السكانية في مصر الوسطى.

ثم ظهرت بعد ذلك على الفور مجموعات كبيرة من أبراج الحمام المخروطية الشكل، التي ينطلق منها ويعود إليها آلاف الطيور. ثم لفت المرشد نظر السيّاح، وكنا نقف جميعا على سطح الباخرة، إلى قمم أهرامات أخرى تظهر بوضوح من على هذا البعد، بفضل عدم وجود مبان مرتفعة. مثل هرم سقّارة المدرّج، وأهرامات سقارة الجنوبية، ومصطبة فرعون، وهرم اللشت الذي تحوّل إلى كوم من التراب وهرم ميدوم. وكل هذه الأهرامات تقع على خط واحد غرب النيل، بامتداد مسافة لا تزيد عن

fb/mashro3pdf

خمسين كيلومترا إلى الجنوب من أهرامات الجيزة.

نستطيع أن نرى كذلك بامتداد مسافة ٣٠٠ كيلومتر إلى الجنوب من القاهرة، في الجهة الواقعة إلى الشرق من النيل، سلسلة شبه متصلة من التلال المنخفضة الارتفاع ذات اللون الأبيض الشاهق، التي قال المرشد عنها أنها من الحجر الجيري، وأنها هي التي أمدّت المصريين القدماء بالأحجار اللازمة لبناء الأهرامات، لكن كان عليهم نقلها من الضفة الشرقية إلى الضفة الغربية، حيث إن الضفّة الغربية هي التي كانت في ذلك الزمن القديم، مخصّصة لبناء المقابر ولدفن الموتى، فهي الضفّة التي يبدأ منها المتوفّى رحلته إلى العالم الآخر. أما مساكن الأحياء فكانت غالبا من الطوب اللبن ولا تستعمل فيها أبدا الأحجار، التي اقتصر استعمالها على بناء بيوت الأبدية.

أكثر ما أثار اهتمامي إذ كنت أراه وألاحظه للمرة الأولى، هو موضوع ما أسماه المرشد قمائن الطوب، وهي مصانع ذات أفران ضخمة ومداخن مرتفعة، لتحويل طمي النيل، وهو مصدر خصوبة الأرض الزراعية المصرية منذ آلاف السنين، إلى قوالب من الطوب الأحمر، قوالب طوب في شكل كتل مستطيلة ذات أضلاع متساوية، يستعمل بحالته تلك ودون إضافة أي طلاء اليه، في بناء أغلب المساكن في القرى والمدن متوسّطة الحجم التي نمرّ بها، سمعت كلمة (تجريف)، وشرح لي أحد الفرنسيين المتخصّصين في مجموعتي السياحية، أن المصريين لو استمروا في هذه الممارسات، فإنهم في خلال أقل من قرن من الزمان لن يجدوا أرضا يزرعونها.

fb/mashro3pdf

(٥)

إن اختراق الريف المصري في صعيد مصر، متعة ثقافية وفنّية رفيعة، فأنت تشاهد البيوت القديمة التي تتساند على بعضها، وأبراج الكنائس والمساجد، ومجموعات القبور تعلوها الأهلّة أو الصلبان، والأسواق بكل ما فيها من بضائع مختلفة ومأكولات، والغيطان التي يلذّ للفرنسيين تخمين مزروعاتها (هل هذا بقدونس؟ هل هذه بامية؟ ما هو البرسيم؟)، والأشجار على جانبي الطريق (هل هذه صفصافة أو جمّيزة؟ أو سنط؟)، والمصانع (قصب سكّر؟ محلج قطن؟ حديد وصلب؟ ألومنيوم؟).

ثم قطارات السكك الحديدية التي لا تزال تعمل على الخطوط المصرية، والتي يؤكّد في كل مرة خبراء السكك الحديدية الفرنسية من بين الزبائن، أن عمر بعضها قد لا يقلّ عن مئة عام، ومناظر المراكب الشراعية في النيل، الذي نقترب منه بين وقت وآخر، ثم مجاميع الناس التي تسير في الشوارع مسلوبة الإرادة، بملابسهم التقليدية التي تسمّى جلباب، نفس الزيّ للرجال والنساء والأطفال، فقط تكون ملوّنة في حالة النساء صغار السنّ، أو سوداء في حالة النساء كبار السنّ، واللون الأسود يقتصر على النساء، إذ لا يمكن أن نراه في جلابيب الرجال، كأن الحزن يقتصر على النساء، هذه المجاميع البشرية تبدو كما لو كانت تخرج من واحدة من التراجيديات الاغريقية، التي يتساءل ناسها عن معنى الوجود البشري.

fb/mashro3pdf

كنا أحيانا نقوم أنا ومجموعتي السياحية مع المرشد المصري، بعمل رحلة طويلة بالأوتوبيس قد تصل لمسافة ٩٠٠ كيلومتر من القاهرة إلى أسوان، أو لمسافة ٧٠٠ كيلومتر من القاهرة إلى الأقصر، أو لمسافة ٥٥٠ كيلومتر من القاهرة إلى نجع حمّادي، أو لمسافة ٢٥٠ كيلومتر من القاهرة إلى أبوقرقاص، وكان تحديد أي من هذه المسافات سنقطعها، يتوقّف على المرسى الذي ستنتظرنا عنده الباخرة النيلية، وطبعا كان هذا يتوقّف كذلك على نوعية وطول مدّة البرنامج السياحي الذي سننفّذه. كنا نبيت غالبا ليلتين في الطريق، في ايتاب المنيا مثلا، أو في أحد فنادق أسيوط.

عندما نقوم بعمل الرحلة بالأوتوبيس، كنا نتوقّف صباح اليوم الأول لزيارة هرم ميدوم المدرّج، عند مدخل الطريق الصحراوي المؤدّي إلى الفيوم، وكنا أحيانا نستأنف السير إلى مدخل الفيّوم لزيارة أهرامات هوّارة واللاهون وبقايا ما كان يعرف في الأزمنة القديمة باسم (قصر التيه) أو (اللابيرانت). ثم بعد مبيت ليلة أو ليلتين في المنيا، كنا نزور في اليومين التاليين مناطقها الأثرية في بني حسن، والأشمونين، وتونة الجبل، وتلّ العمارنة. ثم قد نقطع ٣٠٠ كيلومتر دون توقّف للوصول من المنيا إلى العرابة المدفونة (أبيدوس) بالقرب من مدينة البلينا.

ثم نترك الأوتوبيس ونستأنف الرحلة بالباخرة النيلية من مرسى واحدة من تلك المدن، الأقصر أو نجع حمّادي أو أبو قرقاص حتى أسوان، أقصر هذه الرحلات تكون أربعة أيام (الأقصر/ أسوان)، أطول منها الرحلة

fb/mashro3pdf

النيلية التي تدوم أسبوعا (نجع حمّادي/ أسوان)، أمّا الرحلة النيلية التي تستغرق عشرة أيّام فهي تلك التي تصل بين (أبوقرقاص/ أسوان).

ولمن يعرف الصعيد جيدا، فالطريق البرّي بين بني سويف وأسيوط، تقع إلى جواره وبموازاة خط السكة الحديد، ترعة ضخمة اسمها (الإبراهيمية)، تحمل اسم إبراهيم باشا ابن محمد علي، وهو من أمر بحفرها في القرن التاسع عشر. ولا أعرف من من الاثنين كان قبل الآخر، أي هل تمّ شقّ الترعة قبل بناء خط السكّة الحديد، أم العكس؟ هذه الترعة الإبراهيمية هي من الضخامة والطول بحيث لو قارنتها بنهر السين في باريس لكانت هي أكثر عرضا منه في أغلب مناطقها، وهو ما يدعو السيّاح الفرنسيين أحيانا إلى طرح هذا التساؤل عندما نمرّ بمحاذاتها (هل هذا هو النيل؟)

قرّرت فيما بعد - ولم تكن برامج جوجول ايرث قد ظهرت - أن أصوّر فوتوكوبي لخريطة مصر في هذه المنطقة وأوزّعها عليهم، حتى يدركوا الوضع الطوبوغرافي للمنطقة التي نمرّ بها غرب النيل، بين بني سويف وأسيوط، وحتى يتمكنوا من إدراك المواقع النسبية لكل من النيل، وترعة الإبراهيمية، وبحر يوسف، وموقع واحة الفيّوم وأهراماتها. فيما بعد قلّدني كل المرشدين السياحيين الذين عملوا معي. في مسألة طبع الخرائط وتوزيعها على السيّاح.

fb/mashro3pdf

(٧)

٢٠٠٢. أمّا فيما يتعلّق بالكباري على النيل، فهذه هي ملحوظاتي:

١- في أوائل التسعينات كان هناك عدد من الكباري فوق النيل، تسمح لأهالي المدن التي تقع فيها الكباري بالانتقال بين الضفّتين، الا أننا في بعض المواقع، سوهاج مثلا، عندما كانت البواخر تزيد طوابقها عن ثلاثة، كان ذلك الارتفاع يمنع البواخر من المرور أسفل الكوبري، فكنا في تلك الحالات نضطر إلى البقاء حتى ساعات الليل الأولى، حتى يفتحوا لنا الكوبري فنمر منه لنستأنف رحلتنا.

٢- لم تكن تلك هي حالة كوبري سكك حديد نجع حمّادي، ولا كانت هي حالة كوبري الأقصر الجديد، الذي أقيم على النيل على بعد ٧ كيلومترات إلى الجنوب من الأقصر في منتصف التسعينات. أي أننا لم نكن نضطر إلى الانتظار حتى يفتحوا لنا هذين الكوبريين حتى نتمكّن من المرور. هذان الكوبريان روعيَ فيهما أن يكون ارتفاعهما بم يسمح للبواخر ذات الأربعة طوابق بالمرور.

٣- إلا أن الكوبري الذي حيّرني فعلا لفترة طويلة، هو ذلك الكوبري الذي ظل سنوات طويلة غير مكتمل البناء، ثم حتى بعد أن كانوا قد أكملوا بناءه، ظلّ سنوات طويلة غير مستعمل. هو الكوبري الذي يبدو أنه كان سيخصّص لمرور القطارات، وهو الواقع على بعد خمسة كيلومترات إلى الشمال من كوبري سيارات مدينة قنا، بالتحديد عند بلدة

fb/mashro3pdf

ومعبد دندرة الذي كنا نذهب لزيارته في أغلب البرامج السياحية.

ثم قيل لي إن كوبري خط سكة حديد دندرة، لن يستعمل أبدا في المستقبل على الاطلاق، لأنه لن يحتمل مرور القطارات عليه، لأنه لا يطابق المواصفات الفنيّة المطلوبة. في الحقيقة طوال عشرين عاما في مصر كنت أرى العمّال وهم يستكملون بناء هذا الكوبري، ثم رأيته وقد اكتمل بناؤه، ولم أر أبدا أيّ قطارات تمرّ عليه. قيل لي ذات مرة إن هذا الكوبري هو أحد أهم نماذج الرشوة والفساد في مصر المعاصرة. لم أعرف أبدا أين الحقيقة؟ لكني أتساءل عن حجم التواطؤ بين السلطات الذي يسمح بمثل هذا الفساد. إن بناء كوبري غير مطابق للمواصفات الفنيّة هو جريمة تستحقّ الإعدام في بلد مثل فرنسا، فهي جريمة قتل مع سبق الإصرار والترصّد.

(٨)

في الصحراء المصرية في الطريق بين أسوان وأبو سمبل، شاهدت هياكل عظمية لجمال، ليست بعيدة عن الطريق الأسفلتي. فكنا نتوّقف بالأوتوبيس، ونقترب من الهيكل العظمي لتصويره. بعد حادثة الدير البحري سنة ١٩٩٧، كانت الأوتوبيسات السياحية مضطرّة للذهاب والعودة، في قافلة تصحبها سيّارات الشرطة أمامها وخلفها، وبالتالي أصبح غير مسموح لنا بالتوقّف. مرة عثرنا على جمل حيّ، قال لي أحد المتخصّصين في الحيوانات الذي تصادف وجوده معي في تلك

fb/mashro3pdf

المجموعة من السيّاح، أنه لا سبيل إلى إنقاذه، لكونه في حالة صحيّة سيّئة جدا.

إن قوافل الجمال القادمة من مناطق غرب السودان، خاصة من دارفور، كانت حتى نهاية التسعينات على الأقل، لا تزال مستمرة في المجيء من السودان إلى مصر عبر طريق الأربعين، الذي يسيرون عليه أربعين يوما، بمتوسّط سرعة حوالي ١٠٠ كيلومتر في اليوم الواحد. شاهدت مرة واحدة فقط خلال كل تلك السنوات التي عشتها في مصر، قافلة تتكوّن من مئات الجمال، تسير على بعد بضع مئات من الأمتار من الطريق الأسفلتي بين أسوان وأبو سمبل. أوقفنا الأوتوبيس وجرينا نحوها للاقتراب منها بغرض تصويرها، الا أنها طبعا لم تتوقّف لتنتظرنا.

ثم حدث ذات مرة، أن قال لي أحد السيّاح الفرنسيين في واحدة من مجموعاتي، إنه يعمل في توريد الحيوانات من أفريقيا إلى حدائق الحيوانات في القارة الأوروبية. قال إنه عاش فترة من حياته مع أبيه في كينيا، حيث كان الأب يعمل منظّم رحلات سفاري في الغابات الكينية، وهي رحلات كانت (ولا زالت) تجد إقبالا كبيرا من السيّاح الأوروبيين. عرفت منه أن هناك عنصرا مشتركا بيني وبينه، فتعاطفنا سويّا، ألا وهو أن أباه انجليزي وأمه فرنسية. عند مرور مركبنا السياحي في المنطقة بين معبد كوم أومبو ومدينة أسوان، أصرّ على مغادرة المركب، للذهاب إلى

fb/mashro3pdf

سوق الجمال في مدينة دراو. كنت مضطرا إلى عدم تركه وحده. كانت لديه رغبة في معرفة أسعار الجمال، التي يفكر في توريدها إلى حديقة حيوانات أوروبية.

fb/mashro3pdf

الفصل الرابع عشر

(١)

تعرّفت على (محمّد) طبيب الوحدة الصحيّة بقرية القرنة الجديدة، بالبرّ الغربي بالأقصر، وكانت عيادته الحكومية تقع في القرية النموذجية التي كان المهندس حسن فتحي قد بناها في نهاية الأربعينات، ثم رفض أهالي القرنة القديمة الانتقال اليها. اكتشفت أنه يجيد الفرنسية أفضل من أي مرشد لغة فرنسية قابلته حتى وقتها. فوجئت بأنه خرّيج مدرسة اليسوعيين (الجيزويت Jesuites) في القاهرة، وهي مدرسة ذات ميول دينية مسيحية معروفة، قال إن كل أفراد عائلته تخرّجوا من مدارس دينية فرنسية، والده وجدّه من الجيزويت، ووالدته وجدّته من الساكريه كور، لأنها مدارس كانت (ويجوز أنها لا زالت) تقدّم أفضل خدمة تعليمية متاحة في القاهرة، دون أيّة مشاكل تتعلّق بالمسائل الدينية.

يؤدّي (محمّد) في الأقصر فترة خدمته الاجبارية في القطاع الريفي،

fb/mashro3pdf

سألته لماذا هي إجبارية، قال لأنه وحيد والديه وبالتالي هو معفى من الخدمة العسكرية، لكنه مجبر على قضاء سنة (أو سنتين) في هذه الوحدة الصحية. قال إنه حصل على هذا المكان بالواسطة لأن الوحدة قريبة من مدينة كبيرة هي الأقصر. فيما بعد كنت كلما وجدت نفسي خاليا من العمل في فترة بعد الظهر، أعبر النيل في معدّيّة الأهالي، ثم أستأجر عجلة وأذهب بها إليه لأقضي معه بعض الوقت، محاولا أن أستفيد من ثقافته الرفيعة، وقدرته غير العادية على شرح بعض المسائل المصرية التي كان يغيب عنّي تفسيرها. اقترحت عليه أن يدرس الآثار المصرية، ويحصل على ترخيص وزارة السياحة، ويعمل مرشدا سياحيا لأنها مهنة ممتعة، بالاضافة إلى مكاسبها المادية، قال لي إنه يحب ممارسة الطب، ويريد أن يتخصّص يوما ما في الجراحات الدقيقة لشرايين المخ.

مأساة وقعت قبل شهور قليلة. زينب هي فتاة في الرابعة عشرة من العمر، تلميذة في ثانية اعدادي لأبوين جاهلين لم يذهبا إلى المدارس ولم يتعلما القراءة والكتابة. زينب ذهبت إلى أمّها تشتكي من مغص حاد ومن انتفاخ في بطنها. ذهبت الأم إلى الأب ليأخذ ابنته إلى الطبيب، فلاحظ الأب انتفاخ بطن ابنته وشكّ في سلوكها، ثم بدأ في ضربها لتعترف له باسم الرجل الذي ارتكبت معه هذه الجريمة. والطفلة لا تفهم من كلامه أي شيء. استمر الرجل في ضربها بعنف شديد بكل ما طالت يداه حتى ماتت بنزيف في المخ. جاؤوا بالجثة إلى الطبيب لعلّه يستطيع انقاذها،

fb/mashro3pdf

فاكتشف أنها ماتت. أبلغ النقطة فأحضرت الطبيب الشرعي، ليكتشف أن الفتاة لديها انسداد في غشاء البكارة، مما أدّى إلى تراكم افرازات الدورة الشهرية خلال العامين السابقين، دون أن تدري بها الطفلة، والأدهى هو دون أن تدري بها الأم.

(٢)

من بين أسخف من قابلت، صاحب مركب تعدّى الستّين، ويريد بأي ثمن أن يوقع فتاة ألمانية عشرينية في هواه. كان المركب يستقبل مجموعات سياحية فرنسية وألمانية، وبالتالى كان هناك مرشد مصري تخصّص لغة ألمانية على المركب، وهو عاشق محترف أو دون جوان، كان معروفاً على المراكب بكثرة غرامياته، اذ كانت له فى كل أسبوع عشيقة مختلفة تأتى له خصّيصا من ألمانيا، وفى تلك المرة التى كان فيها صاحب المركب موجودا على ظهر مركبه، كانت الفتاة الألمانية شابة رائعة الجمال فى العشرين من عمرها، عندما رآها صاحب المراكب شهق وأقسم على أن ينتزعها عنوة من المرشد، رغم أنه (أى صاحب المركب) كان قد تعدى الستين!

دعاني المرشد إلى الجلوس معه هو والفتاة الألمانية، خوفا من أن يستفرد به صاحب المركب، وأنا معرفتي بالألمانية محدودة، لكني

fb/mashro3pdf

وجدت صاحب المركب يتحدّث إلى الفتاة بالانجليزية عن مقدار ثروته، وكيف أنه مستعد أن يشترى لها شقة تمليك فى شتوتجارت حيث تقيم، وسيارة مرسيدس آخر موديل، لو هي وافقت فقط على قضاء هذه الليلة في كابينته هو لا في كابينة المرشد! في البداية اعتقدت الفتاة أنه يمزح، الا أن الالحاح جعلها تدرك أنه جاد! عرض صاحب المركب على المرشد أي مبلغ يريده مقابل التنازل عن الفتاة! كأنها جارية قابلة للبيع والشراء. واضطر الشاب إلى ترك العمل على هذا المركب مؤقتًا، خلال تلك الرحلة، واختفى هو والفتاة، حتى يتخلص فقط من الحاح صاحب المركب المتصابى المجنون.

(٣)

مرة كان لديّ مرشد عبيط جدا لدرجة أنه كان يقول على المناظر القبطية الموجودة في بعض معابد منطقة النوبة، مثل النقش الخاص بالقديس بطرس في قدس أقداس معبد وادي السباع، أو النقش الخاص بالقديس مار جرجس على واجهة صالة الأعمدة في معبد كلابشة، إنها نقوش ورسوم تعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد. سألته ذات مرة

(كيف يمكن لكنيسة أو لنقوش كنسية مسيحية أن تكون مبنية أو مرسومة قبل ميلاد المسيح؟)

لم يفهم سؤالي، فسألته

fb/mashro3pdf

(هل تعرف معنى عبارة قبل الميلاد؟).

أما أغرب ما سمعته فهو ما قاله مرشد محلّي في (أبو سمبل)، سيكون غالبا غير حاصل على ترخيص، ويبدو لي الآن وكأنه لم يكن حتى حاصلا على مؤهّل عال، لعدم قدرته على الحديث بشكل مقبول لا بالفرنسية ولا بالانجليزية، جاءني أمام معبد أبو سمبل، والمفروض أنه متخصص فيه حيث إنه يقيم هنا، ويشرح المعبد عشر مرات كل يوم لمجموعات سياحية مختلفة. قال (تمّ إنقاذ معابد أبو سمبل بنقلها من الضفة الشرقية للنيل إلى الضفة الغربية التي أعيد بناؤه عليها)! التفت اليّ الناس كلّهم، كل أفراد مجموعتي السياحية، ينظرون وينتظرون ماذا سأقول، وكنت أداري ضحكتي في كمّ قميصي.

سألته (هل أنت متأكد ممّا تقوله؟)

قال (من منا المرشد أنا أم أنت؟).

في الحقيقة كان هذا الردّ منه هو الدليل على منتهى الوقاحة. لذلك لم أسكت وذكرت له بالفرنسية المبسّطة التي يستعملها أنه لا يعرف حتى أبسط المعلومات عن الموقع، وشرحت له مستعملا حركات اليدين، كيف أن بحيرة ناصر كانت قد تكوّنت بعد بناء السد العالي، وارتفعت فيها مستويات المياه عاما بعد عام، حتى تمّ غمر المعبد تماما بالمياه، بعدها تمّ نقل المعبد من مكانه المنخفض الذي تعرّض لغمر المياه، إلى مكان يرتفع عن المكان الأصلي بستين مترا، لكنه على نفس هذه الضفّة الغربية التي نقف عليها.

fb/mashro3pdf

فيما بعد كنت أسأل نفسي (ألم يفكّر هذا الشخص أبدا في قراءة كتاب عن الموقع الذي يشرحه؟ ألم يفكّر حتى في سؤال زملائه الآخرين من المرشدين المحليين الذين قرأوا؟ ألم يفكّر أي شخص مسؤول عن الموقع في اختبار مستوى معلومات ولغات المرشدين المحليين؟ ما كل هذا الاستهتار؟). في الحقيقة إن من أعجب التعبيرات المصرية التي لم أفهمها الا بصعوبة شديدة، هو أنني عندما كنت أنوي في بعض الحالات، أن أتقدّم بشكوى ضد أحد العاملين، على أحد المراكب مثلا أو في أحد الفنادق، بسبب اهماله أو استهتاره أو كسله، أن زملاءه كانوا يقولون لي (ما تقطعش عيشه).

(٤)

كان المرشد المصري في الأوتوبيس الذي ينقل السيّاح، من مطار أسوان إلى المركب الواقف في مرسى أسوان، يقول

(إن النوبيين كسالى جدا ولذلك فهم لا يصلحون الا لمهنة الفرّاشين أو البوّابين)

لم يكن المرشد المصري يعلم أن مندوب الشركة السياحية النوبي الأصل، كان قد ركب معنا نفس السيّارة من بابها الخلفي. ولم يكن المرشد المصري يعلم أن مندوب الشركة هذا يجيد الفرنسية. لكن المرشد فوجئ بالمندوب يقف في وسط السيارة قائلا بالفرنسية بأعلى ما في صوته

fb/mashro3pdf

(كفاكم كذبا وظلما لنا. فنحن أكثر ذكاءً منكم، لكنكم أنتم بعنصريتكم البغيضة، لا تتيحون لنا الفرص، حتى نحصل على وظائف مناسبة، ثم إنكم سرقتم منا بيوتنا وقرانا، التي كنا نرغب في الاحتفاظ بها، حتى لا نتعرّض لما تعرّضونا له الآن من مهانة)

لم أعرف ماذا أفعل؟ حاولت أن أهدّئ المندوب النوبي. أجلسته من جديد في مكانه. ثم ذهبت إلى المرشد الذي صمت تماما لا يعرف ماذا يقول. طلبت منه الاعتذار علنا في الميكروفون إلى المندوب، أمام كل هؤلاء السيّاح، الذين شهدوا إهانته وإهانة أهله وشعبه. وقد فعل ولكن ببرود شديد. جعلني هذا الموقف أتأكد أن حقيقة المشاعر بينهما هي الكراهية، التي تنتهز الفرصة لتظهر عدوانيتها.

ماذا فعلت مصر بالنوبيين؟ خلال عشرين عاما لم أقابل نوبيا واحدا يحب مصر أو يحترم المصريين. الأجيال الشابة تعاني من تعصّب المصريين العرقي ضد كل من كان لون بشرته أسود. يستشهد النوبيون الذين عرفتهم بالأمثال المصرية (القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود) و(الكذبة البيضاء) و(كان يوم اسود). ناهيك عن عدد من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة التي تفضّل اللون الأبيض، لون الأنقياء الأطهار، على اللون الأسود، لون الأشقياء الأشرار. حتى الكلب الأسود نجاسته مغلّظة عن الكلب الأبيض.

أما الجيل المولود في الخمسينات الذي عاصر في طفولته بناء السد العالي وارتفاع المياه في بحيرة السد عاما بعد عام، بين ١٩٦٠ و١٩٦٤،

fb/mashro3pdf

فلا ينسى عمليات التهجير التي تمّت في أسوأ الظروف. إذ تمّ نقل البشر في صنادل كانت تستعمل قبل ذلك في نقل الحيوانات. ثم تمّ تسليمهم مساكن ضيّقة جدا بالمقارنة بالمنازل الواسعة التي كانت لهم في النوبة القديمة، بالإضافة إلى أن المساكن الجديدة في كوم أومبو مثلا حيث تم تسكين أغلبية النوبيين المهجّرين، كانت تبعد عن النيل بمسافة عشرة كيلومترات، في حين أن منازلهم القديمة كانت على ضفاف النيل مباشرة.

كان من المعتاد، ونحن في زيارة منطقة أسوان، أن نأخذ الفلايك لزيارة ضريح الأغاخان، وجزيرة النباتات، ثم نقوم بزيارة قرية نوبية تقع في الضفّة الغربية للنيل، وهي الضفّة المواجهة لمدينة أسوان، التي تقع على الضفّة الشرقية للنيل. في حالة وجود تور ليدر أجنبي مثلي، كان النوبيون من قادة الفلايك، يصرّون على أن أذهب أنا وحدي مع مجموعتي السياحية، إلى القرية النوبية غرب النيل، ولا يسمحون للمرشد المصري بأن يضع قدمه فيها، على أن يبقى المرشد في الفلوكة ينتظر فيها المجموعة السياحية حتى تنتهي من زيارة القرية. أي أنهم لم يكونوا يقبلون زيارة المرشدين المصريين لقريتهم، في حين أنهم كانوا يسمحون للتوريدرات الأجانب بذلك. هل هذا حقا شعب واحد؟

fb/mashro3pdf

(٥)

أنا بصفتي شخصا أجنبيا عن مصر، أرجو أن تسامحوني فيما سأقوله لكم هنا، لكني أجد أن هذا الشيء الذي سأقوله لكم هنا، هو شيء شديد الوضوح في طريقة تفكير المصريين، هذا الشيء هو الاستسهال والسطحيّة والتأكيد على صحّة الرأي والتمسّك به حتى دون أي بحث وتقصّي، وعدم السماح لأي شخص بالاعتراض، حتى لو أن المسألة لا تتعلّق بالدين، بل باسم جزيرة في النيل. ورغم أنه بسبب كوني أجنبيا، قد يجد البعض أن كلامي هذا هو تطاول منّي على الشعب المصري، الا أن لدي الكثير من الأدلّة على كلامي.

خذوا مثلا هذا السؤال: هل (فيلة) هي كلمة عربية تعني مؤنث فيل؟ وحيث أن كلمة (إيليفانتين) الإنجليزية تعني (بشكل فيل)، هل جزيرة (فيلة) وجزيرة (ايليفانتاين elephantine) هما لهذا السبب جزيرة واحدة ذات اسمين، أحدهما باللغة العربية والأخر باللغة الإنجليزية؟ يؤكّد كل المصريين الذين قابلتهم أن الإجابة على كل هذه الأسئلة هي بكلمة (نعم) هذه المعلومات صحيحة.

لكن الحقيقة هي أن الإجابة على هذين السؤالين هي للأسف بالنفي، إذ ليس هذا الكلام صحيحا، ومع ذلك فإن عددا كبيرا من المصريين، من فئات اجتماعية مختلفة، كنت أتقابل معهم وأتحدّث اليهم، أثناء النزهة في جزيرة النباتات الواقعة خلف جزيرة ايليفانتاين، خاصة في مواسم

fb/mashro3pdf

إجازات نصف العام الدراسي، التي تزدحم فيها الجزيرة بالمصريين، وكانوا يقبلون على التحدث معي، لأنهم كانوا ينبهرون بكوني أجنبيّا، يتحدّث معهم بالعامية المصرية، كانوا يقولون لي أن جزيرة (فيلة) هي نفسها جزيرة (أيليفانتاين)، مؤكّدين بثقة شديدة عليّ أن كلمة ايليفانتاين معناها فيل باللغة الإنجليزية.

هذا يثبت أن هؤلاء المصريون حتى لو كانوا من بين طلبة الجامعة أو خرّيجيها، لم يلقوا نظرة واحدة على خريطة منطقة أسوان، قبل حضورهم إليها لزيارتها، وذلك لأنهم لو كانوا قد ألقوا نظرة واحدة على الخريطة، لأدركوا أن هناك جزيرتين كبيرتين في منطقة نيل أسوان، واحدة منهما اسمها (ايليفانتاين) وتقع إلى الشمال من خزّان أسوان القديم، الذي أنشأه الانجليز سنة ١٩٠٢، والثانية اسمها (فيلة) وتقع إلى الجنوب من خزّان أسوان القديم.

إذن فيلة وإيليفانتاين هما ليسا جزيرة واحدة، وإنما هما جزيرتان اثنتان. تلك التي تقع شمال خزّان أسوان، تحمل اسم ايليفانتاين Elephantine، التي هي صفة adjective، تعني بالانجليزية أن يكون الشيء الموصوف على شكل فيل، والسبب في ذلك هو أن الكتل الجرانيتية الضخمة، الموجودة حول كل سواحل تلك الجزيرة، تبدو من بعيد كما لو أنها كانت أجسام قطيع حيوانات من الأفيال. أما الجزيرة التي تقع جنوب خزّان أسوان، التي تحمل اسم (فيلة)، فهذا الاسم يشير إلى صفة من صفات الالهة ايزيس، التي كان قد أهدي إليها المعبد المقام

fb/mashro3pdf

على هذه الجزيرة، وهي كلمة يونانية Philae تعني المُحِبّة.

(٦)

١٩٩٧. وقع حادث الدير البحري في الأقصر، في يوم ١٧ نوفمبر، وكنت قبله بيوم واحد مع مجموعتي السياحية في زيارة الموقع، الذي يقوم بزيارته الآلاف من السيّاح في الفترة الصباحية. ورغم وجود تهديدات مستمرة طوال السنوات الأخيرة، مثل تفجير أوتوبيس سيّاح ألمان أمام متحف الآثار المصرية بالقاهرة، وتفجير أوتوبيس آخر أمام فندق أوروبا القاهرة بشارع الهرم، وإطلاق النار على أوتوبيس أثناء مروره أمام مدينة قنا في طريقه إلى زيارة معبد دندرة، الا أنه في معبد الدير البحري صباح ذلك اليوم لم يكن هناك جندي واحد يحمل سلاحا به طلقات نارية.

كان هناك جنديّان قتلا على الفور ولم يتمكنا من الدفاع عن أنفسهما، لأن سلاحيهما لم تكن بهما طلقات نارية. كأن وجودهما في هذا المكان وفي هذا الزمان، هو مجرّد وجود شكلي مظهري. فأنتم كما تعرفون عمق المشاعر الدينية لدى المصريين الذين يؤمنون بأن كل شيء إلى زوال، وأن إرادة الله نافذة فوق إرادة أي بشر، فلو أن الله يريد لهذين الجنديين أن يُقتلا، فلن تنفعهما أية إرادة بشرية، حتى لو كانا مزوّدين بترسانة من الأسلحة الحديثة، لذلك فما الداعي لتزويدهما بهذه الأسلحة؟ هذا هو أحد أهم ملامح الحياة في مصر. كل خطأ قاتل يمكن أن تجد تبريرا

fb/mashro3pdf

مقبولا له فقط بنطق هذه العبارة

(هذه هي إرادة الله)

(ربّنا عايز كده)

كل شيء في مصر شكلي جدا، سطحي جدا، لا عمق له. فالمهم لدى المصريين هو الشكل والمظهر ولا أهمية على الاطلاق للحقيقة.

fb/mashro3pdf

الفصل الخامس عشر

(١)

بعد عشرين عاما في مصر، أصبحت أتساءل أيهما هو بلدي؟ البلد الذي ولدت فيه أم البلد الذي أمضيت فيه عشرين عاما من شبابي ورجولتي؟

هل هو حيث الامتداد البصري للأصفر الكبير الذي لا تعوقه أي عوائق؟ أم هو حيث توجد أوراق خضراء كثيرة على جذوع الأشجار طول العام وفي كل مكان؟

هل هو الضوء يغمر كل الأماكن صيفا وشتاءً ولا تغيب الشمس أبدا؟ أم هو حيث تغيب الشمس أحيانا خلف السحب وأحيانا أخرى تحت الغطاء الأخضر الكثيف؟

هل هو حيث كل شيء مكشوف أمام كل الأعين والآذان ولا شيء يمكن إخفاؤه عن أحد بسبب أن الأفواه لا تتوقّف عن الكلام وبسبب أنه ليست هناك حرّية حقيقية؟ أم هو حيث يمكن رغم الكثافة السكّانية

fb/mashro3pdf

النسبية للمدن أن يقبّل الرجل امرأته أو الشاب فتاته ويحتضنها وسط الزحام دون أن يلفت تصرّفه هذا انتباه أي شخص آخر؟

هل هو حيث يكون أي حوار عادي بين أي اثنين عاديين في الشارع هو مصدر ضجّة هائلة وإزعاج مؤلم؟ أم هو حيث يمكنك أن تظل في وسط ميدان وسط المدينة بكل الحركة المرورية حولك ومئات المشاة، ولكنك تظل تتكلم همسا إلى جارك كما يفعل الجميع، حتى يتمكن الجميع من الإنصات إلى صوت حفيف الهواء بورق الشجر وصوت زقزقة العصافير التي تكون دائما هي الأصوات التي تعلو فوق أي صوت آخر؟

السؤال الحقيقي هو لماذا أحببت مصر كل هذا الحب؟

(٢)

٢٠١٥. منذ عدت إلى فرنسا، أصبحت شركات السياحة تستعين بي في الذهاب مع مجموعات فرنسية إلى دول جديدة. أعجب ما في الموضوع هو اقبال الفرنسيين على السفر إلى دول إسلامية، مثل جمهوريات آسيا الوسطى الواقعة إلى الشمال الشرقي من ايران، أوزبيكيستان وتركمانيستان وأذربايجان، لزيارة تراث مدن مثل بخارى وطشقند وسمرقند. ثم الأعجب هو الاقبال على زيارة الامارات لقضاء عطلات رأس السنة على شواطئ دبيّ الدافئة خلال تلك الفترة من العام، وذلك طبعا بفضل الحكمة التي تتمتّع بها الإدارة السياسية لدولة

fb/mashro3pdf

الامارات، والتي جعلتهم يتركون للسائح وللسائحة الحرّية الكاملة في ارتداء ما يحلو له أو لها من ملابس، ثم كذلك السماح لهم بحرّية الحركة في الأسواق القديمة وفي الرحلات البحرية على السفن القديمة. للأسف لم تفهم مصر أبدا أن تقييد حرية السائح ستجعله يهرب من مصر.

أتذكّر الآن كيف أنهم في مصر كانوا في فنادقهم وقراهم السياحية الواقعة على شواطئ البحر الأحمر، خاصة منذ اشتداد موجات الأسلمة والتأسلم والإرهاب منذ منتصف التسعينات، يجعلون موظّفيهم يمرّون على الشواطئ الرملية وعلى حواف حمّامات السباحة للتنبيه على السائحات، بضرورة عدم ارتداء المايوه القطعتين.

فإذا لم تستجب السائحة كانت تجد نفسها محاطة بعشرة أشخاص على الأقل من الشباب والرجال ينهشون جسمها بأعينهم. مناظر كانت تدلّ الأجانب من جنسيّات مختلفة، على حجم التخلّف والكبت والحرمان الذي يعيش فيه شباب ذلك البلد العريق، الذي كانوا يسمّونه في الزمن القديم (أمّ الدنيا).

مرة قال لي مرشد سياحي مثقّف

(الأوروبيات هم سبايانا السابقون في الحروب الصليبية).

بالمناسبة أعتقد أن مشكلة مصر ليست مشكلة اقتصادية، بل هي في المقام الأول مشكلة ثقافية، فهم لا يقبلون أبدا أن تقول لهم إن عليهم أن يغيّروا طريقة تفكيرهم.

fb/mashro3pdf

(٣)

جئت إلى مصر مرة واحدة بعد يناير ٢٠١١، وجاءت معي ماريان وهي ابنة أحد أصدقائي المقرّبين، في الثانية والعشرين من عمرها، وتعتبرني مثل العم لها. كنا نمرّ في شوارع وسط البلد، حين شاهدنا الجنود يضربون بعض النساء المتظاهرات بكعوب البنادق، فصرخت ماريان واندفعت في اتجاههم، ولكني أمسكت بها في اللحظة الأخيرة، وقبضت على ذراعيها بحزم، محاولا التحكّم في حركتها. قالت (توقّف عن الامساك بي، اطمئن لن أفعل أي شيء).

كانت حركتها المفاجئة العنيفة وصرخاتها قد لفتت انتباه أحد الضبّاط، الذي كان يقف بالقرب منا، وعلى ما يبدو أنه كان متنكّرا في ثياب مدنية. وكانت ماريان قد أخرجت من حقيبة يدها آلة تصوير فوتوغرافي بدأت في التقاط بعض الصور بها. تقدّم الرجل نحونا وطلب مني أن تتوقف الفتاة عن التصوير، قال لي بالانجليزية (أطلب من ابنتك أن تتوقّف ask your daughter to stop). لم تتوقّف ماريان بل استمرت فيما كانت تفعله. مدّ الضابط يده وانتزع منها آلة التصوير وألقى بها على الأرض لتتحطّم. ثم غادر المكان.

الآن ونحن في ٢٠١٥ أجد نفسي أشعر بسعادة بالغة، بفضل اشتراكي

fb/mashro3pdf

مع أصدقاء مصريين على الفيس بوك، مما يتيح لي أحيانا الاستمتاع بمظاهر غباء تصرّفات رجال الشرطة المصرية في التعامل مع المصريين. فبعد أن أصبحت الموبايلات القادرة على التقاط الصور والأفلام، منتشرة في أيدي الجميع، وبعد أن أصبحت إمكانية إنزال الأفلام القصيرة downloading على الفيس بوك، متاحة لعدد كبير من الناس.

شاهدت مؤخّرا منظرا لأمين شرطة يضرب بوحشية شديدة، باللكمات والركلات، أحد سائقي ميكروباص الأهالي، لسبب لا أعرفه، وعندما لمح فتاة مصرية تقف في الشارع لتصوير المنظر بالموبايل، جذبها من شعرها إلى البوكس، وحطّم لها موبايلها، وبدأ في ضربها باللكمات والركلات هي الأخرى. في هذه اللحظة صاح بعض الرجال من شرفات منازلهم، ليلفتوا انتباهه إلى أن سبعة أو ثمانية منهم يقومون، في سبع أو ثمان شرفات منازل مطلّة على الشارع، بتصوير منظر ضرب الفتاة هي الأخرى باللكمات والركلات. بفضل الموبايل أصبحت تصرّفات الشرطة المصرية مفضوحة تماما، ولم تعد قادرة على ممارسة أفعالها البلطجية علنا.

(٤)

عدت مؤخّرا إلى مشاهدة فيلم مصري جميل، على قناة أرتيه Arte الفرنسية الألمانية، اسمه (الأبواب المغلقة)، وتذكّرت أنني كنت قد

fb/mashro3pdf

شاهدته مرّة من قبل، في منتصف التسعينات تقريبا، في مهرجان سينما العالم الثالث في مونبيلييه، إذا لم تخنّي الذاكرة.

البطل هو شاب في السابعة عشرة من عمره، وأمه تعمل خادمة لدى عائلة غنية لتنفق على إتمام تعليمه حتى يصبح يوماً ما ضابطًا طيارًا (أول حب فى حياتها كان لطيار). الإبن لا يقبل عمل أمه، وهو لا يقبل مبدأ عمل المرأة بشكل عام، بسبب حضوره اجتماعات في جمعية اسلامية. نراه وهو يذهب إلى أمه فى مقر عملها، في شقة مساحتها شاسعة فى أحد الأدوار العليا فى أحد الأبراج على نيل القاهرة، ونرى كيف أنه يخلع حذاءه على مدخل المطبخ، احتراماً للمكان كما تفعل أمه! لكن أصحاب المكان لا يحترمون الأم، فالرجل يريد أن يعتدى عليها فى منزله الذى يقيم فيه مع زوجته، وينتهى شك الزوجة فى المسألة بإلقاء الأم فى الطريق دون أى تعويض عن مدة الخدمة أو مكافأة نهاية خدمة.

أبوه يعمل مديرا لشركة إلحاق عمالة مصرية بالخارج، يذهب الشاب إليه فى مكتبه فلا يفكر الأب إلا فى كيفية إرسال إبنه للعمل فى بلد عربى. يحاول إقناع الإبن بذلك ولكن دون جدوى. هدف الأب الوحيد هو أن يتخلص من مطالبة الإبن له بالصرف عليه. فى نهاية اللقاء لا يعطيه الا قلماً جافاً كمساعدة له فى مصاريف تعليمه.

fb/mashro3pdf

المدرسة التي يذهب إليها الشاب، نرى فيها زحاما في كل مكان، في الفصول وفي الأفنية، ولا نشاهد الا انشغال المدرسين بإضافة تلاميذ جدد إلى فصول الدروس الخصوصية. تذهب معه الأم مرة إلى المدرسة للقاء مدرّس اللغة العربية، الذى كان قد طلب مقابلة ولى الأمر. كان المدرس يفكر فقط فى إضافة الابن إلى مجموعة دروس خصوصية. إلا أنه عندما يرى الأم مع التلميذ، يقتنع بمساعدته مجاناً، على أمل الوصول إلى الأم، وهو ما يبرر ذهابه اليهما فى منزلهما بسطح منزل في أحد الأحياء الشعبية مرات عديدة. ذات مرة يذهب الولد إلى الشارع لشراء زجاجة مياه غازية، فينفرد المدرس بالأم ويطلب منها أن تراعى احتياجاتها الخاصة كأنثى وليس فقط احتياجات ابنها التلميذ. يسمع الابن هذا الحوار.

قلة النقود تجعل الشاب يفكر فى العمل فى الشوارع وعند اشارات المرور فى بيع الياسمين. يقابل مرّة فتاة تعطيه عشرة جنيهات ثمنا لعقد ياسمين، ولكنها تجلس فى سيارة فارهة مع شخص يرتدى الزى العربى، أكبر منها كثيراً فى السن. ترفض أمه هذه النقود، ثمن بيع عقود الياسمين عند إشارات المرور، رغم احتياجهما اليها، لأن هذا يتعارض مع تحقيق حلم أن يصبح ابنها ذات يوم خريج جامعة. يتشتت الشاب بين الصياعة فى الشوارع وبيع المناديل الورقية وعقود الياسمين من جهة، وبين الاجتماعات الدينية فى المساجد والزوايا التى يقوده إليها أحد مدرسى مدرسته.

fb/mashro3pdf

نرى الشاب فى نهاية الفيلم وقد ترك لحيته تنمو وقد ارتدى جلابية بيضاء! يعرض عليه أحد الشيوخ أن يتزوج أمه التى رآها معه ذات يوم، فيفقد الشاب ثقتة فى الشيخ. احتياجاته الخاصة كشاب تثيرها فيه بإلحاح جارتهم فى السطح، التى تقول إنها تعمل ممرضة لأنها تعود متأخرة كل يوم إلى المنزل. يحاول الشاب ذات مرة أن يلمس ركبة جارته العارية، ومرة أخرى أن يقبّلها، إلا أنه فى كل مرة يجرى فجأة من أمامها خائفاً إذ إن أفكاره الدينية تعذبه. ينتهي الفيلم بقتل الشاب للمدرس بالسكّين.

(٥)

كانت أوريلي حلما لا دخل له بالحقيقة والواقع. كنا في الخامسة عشرة من العمر، وقيل لنا إنها كانت تسكن بيروت. كان ذلك قد حدث سنوات قبل بداية انهيار لبنان ودخوله في حرب أهلية ستدوم خمسة عشر عاما. لم أعرف أبدا كيف أدرك أبوها خطورة الوضع سنوات قبل البداية الحقيقية للانهيار التام. قرّر الأب أن يسافر إلى فرنسا مع زوجته الإيطالية. كان الأب من أصول أرمينية جاء والداه إلى لبنان بعد مذبحة ١٩١٥، ثم وُلِدَ هو في بيروت.

فيما بعد حصل هو وبناته الأربع على الجنسية الفرنسية. انتقلت كل هذه الانتماءات إلى أوريلي التي كانت في نفس الوقت نصف إيطالية ربع أرمينية ربع لبنانية، ثم أصبحت فرنسية بالكامل. كانت تلميذة جادة

fb/mashro3pdf

ومتفوّقة رغم ظروف الاغتراب والانتقال من بلد طفولتها إلى بلد جديد. صحيح أن هناك عاملين هامين كانا قد ساعداها هما أولا ثقافتها الفرنسية، ثانيا احساسها بأن فرنسا كانت وطنها الثاني، الا أنها في الحقيقة كانت ذات ذكاء نادر المثال.

أوريلي ظهرت إلى جواري في المدرسة الاعدادية، جلست في المقعد المجاور لمقعدي. تحدّثت اليّ على الفور بفرنسية لا تختلف اطلاقا عن فرنسيتي، كانت تتحدّث بطلاقة أربع لغات. في ذلك اليوم الأول لها في فصلي تساءلت كثيرا عن هذا الذكاء النادر وعن هذا الجمال النادر، وكيف لهما أن يجتمعا في فتاة واحدة، دونا عن بقية فتيات الفصل، اللائي كنّ إمّا جميلات فقط أو ذكيّات فقط، وقد شعرن جميعهنّ على الفور بمشاعر الغيرة الحادة منها، ولم يكن لها بينهنّ فيما بعد صديقات حقيقيات.

قالت لي إنها ذات يوم بفضل اللغات التي تجيدها، ستعمل مع منظّمات الإغاثة الدولية التابعة للأمم المتّحدة، لتساعد الشعوب المظلومة خاصة في آسيا وأفريقيا ومنطقة الشرق الأوسط، في الحصول على حقوقها الضائعة. كانت تبدو لي دائما كما لو كانت أكبر مننا في السن وأن وجودها معنا في هذا الفصل لم يكن الا خطأ اداري.

fb/mashro3pdf

(٦)

بالصدفة البحتة قابلت أحد أصدقاء عبد السلام الذي أعطاني عنوانه في أستراليا. كان يقيم في أدليد Adelaide في غرب القارة، ويعمل في مهنة بائع بمحل ملابس كما كان يفعل في مصر. كتبت إليه بالانجليزية وأنا لا أعرف إن كان سيفهمني (أيها القابع في أطراف الأرض ماذا فعلت بك الأيام. هل تتذكر الأيّام التي كنت أشتاق فيها إلى خرميك الخلفي الصغير والأمامي الكبير). ردّ عليّ بانجليزية جيدة إلى حد بعيد مما يدلّ على أن عشر سنوات من الحياة والإقامة في أستراليا كان قد نجحت في تحسين انجليزيّته

(أنا مرهق جدا فالحياة هنا ليست سهلة، رغم مستوى المعيشة المرتفع والدخول الكبيرة، والإقامة في شقق واسعة، تطل على حدائق أو شواطئ المحيط، الا أن أستراليا مثل غيرها من الدول التي كانت تابعة للدول الاستعمارية السابقة فرنسا وإنجلترا، فيها عنصرية بغيضة تتحكّم في كل شيء، إذ يكفيك أن ترى كيف يعاملون الشعب البدائي القديم الذ كان يسكن هذه القارة وحده قبل مئات السنين حتى جاء جيمس كوك.

أتمنى أن أعود فورا إلى مصر، لأني أنا أيضا أشتاق اليك، لكني لم أحصل أبدا على كل حقوقي المالية، فقد تركوني شهورا طويلة أعمل

fb/mashro3pdf

دون أن أحصل على مرتّب بدعوى أن هذه الشهور هي تأمين لصالح العمل ولصالح مكافأة نهاية خدمة العامل. ثم أنظر إلى هذا: فرغم كل تلك السنوات هنا أنا لا أزال في نظرهم أجنبيّا، إذ إنني لم أحصل بعد على الجنسية، بالإضافة إلى أنهم يضطهدون العرب المسلمين، في الحقيقة هم يضطهدون كذلك كل الشعوب الفقيرة القادمة من جنوب شرق آسيا مثل الفيليبينيين والأندونيسيين، ويحدث كثيرا أنني عندما أكون وحدي في الشوارع، خارجا من عملي وعائدا إلى الشقة التي أقيم فيها مع صديقي، يحدث كثيرا أن يضربني الشباب الأوسترالي).

(٧)

تمتلىء شقّتي الحالية في مارسيليا بعشرات الصور التي يغلب عليها اللونان الأبيض والأسود، المأخوذة في مصر في نهايات القرن التاسع عشر، وبدايات القرن العشرين، هناك مثلا صورة فوتوغرافية يمكن تحديد زمنها بالتقريب بين ١٩٣٠ و١٩٣٤، وهي صورة جوّيّة مأخوذة من طائرة تطير بارتفاع حوالي مائتي متر فوق تمثالي ممنون، اللذين يبلغ ارتفاعهما عن الأرض بقاعدتيهما حوالي عشرين مترا.

تظهرهما هذه الصورة بقاعدتيهما وقد غمرتهما المياه بارتفاع مترين، رغم وقوع التمثالين على بعد ثلاثة كيلومترات من المجرى الحالي لنهر النيل عند مدينة الأقصر. كيف تمكّنْتُ من تحديد زمن الصورة؟ أولا

fb/mashro3pdf

لم تصل طائرات شركة مصر للطيران إلى هذه المنطقة من البلاد الا بعد سنة ١٩٣٠، حين تم تأسيس شركة مصر للطيران، وافتتاح أول خط يربط بين القاهرة والأقصر. ثانيا: بعد سنة ١٩٣٤ تمّت تعلية خزان أسوان ولم تعد الفيضانات بقادرة على الوصول إلى هذين التمثالين بهذا المقدار من الغمر.

لا يمكن أن أترك هذا الموضوع يمرّ دون الإشارة إلى صديقي الألماني وريث مكتبة لينرت ولاندروك في شارع شريف بالقاهرة، والذي كلما ذهبت لزيارته أخرج لي من جعبة إرثه من والده المزيد من الصور العجيبة، عن الحياة في مصر منذ أوائل القرن العشرين. سأضع أمامكم هنا بعض النماذج: لقطات للجامعة الأهلية المصرية التي فتحت أبوابها سنة ١٩٠٨، ثم تحوّلت فيما بعد بمبناها الشرقي الجميل إلى مقر للجامعة الأمريكية بالقاهرة.

لقطات لأسواق العبيد في بعض شوارع القاهرة حتى عشرينات القرن العشرين، وكان أغلب هؤلاء العبيد من أجناس سوداء، تجلب بالاختطاف من الغابات في السودان، وتستغل في البيوتات الكبيرة لأغراض الخدمة في المنازل والممارسات الجنسية.

fb/mashro3pdf

خاتمة

يظهر بعض الآلهة المصريين في أكثر من صورة، فمثلا حتحور الهة الحب والعطاء، تظهر في صورة البقرة، كما تظهر في صورة شجرة الجمّيز، وجحوتي يظهر في صورتين هو الآخر، إحداهما هي صورة الطائر أبي منجل، والأخرى هي صورة القرد البابون. هذا هو الشيء المحيّر. جحوتي اله الحكمة والمعرفة في مصر القديمة، لماذا يظهر في شكل القرد بابون؟

يقال إن اختيار طائر أبي منجل (الأيبيس) ليصبح أحد الشكلين اللذين يتجسّد فيهما جحوتي، هو بفضل مشية أبي منجل البطيئة المتأنية التي توحي بالحكمة، ونظرته إلى الأشياء كأنه يتأمّلها طويلا. وقيل إنه اختير كذلك لأنه كان قادرا على استعمال ريش جسمه في الكتابة، فهو بعد أن كان الها للحكمة والمعرفة، أصبح كذلك الها للكتابة. لكن ليس هناك ما يمكن أن يقال، فيما يتعلّق بالشكل الثاني الذي كان جحوتي يظهر به في بعض الأحيان، وهو شكل قرد البابون، الا إذا قلنا إن الحكمة تستلزم أحيانا قدرا من السخرية. على الأقل هذا هو ما قاله بعض القدماء

fb/mashro3pdf

بشأن البابون. إن وجود شكلين يظهر بهما هذا الاله، هو ما يفسّر السبب في وجود مومياءات لطائر أبي منجل ولقرد البابون معا في سيرابيوم تونة الجبل.

وسيرابيوم كلمة استعملت في علوم المصريات، للإشارة إلى سراديب دفن الآلهة، المحفورة في باطن الأرض، في مواقع مختلفة من مصر. ففي سنة ١٨٥٠ اكتشف عالم المصريات الفرنسي أوجست ماريت، سراديب سقارة التي تمتدّ في خطوط مستقيمة تحت الأرض لبضعة كيلومترات، ولأنها كانت مخصّصة لدفن الاله سيرابيس، سميّت سيرابيوم serapeum ، والمقطع (يوم eum) هو زائدة يونانية قديمة تعني المكان، مثلما يقال الآن جيمنازيوم أو ستاديوم أو سولاريوم.

وبالتالي سيرابيوم تعني مكان سيرابيس، والشكل الذي يظهر به سيرابيس في المعابد المصرية هو الثور، وأحيانا العجل أبيس، وكان ماريت قد وجد في ذلك المكان اثنين وعشرين ثورا محنّطا، بعضها كان موضوعا في توابيت ذهبية، منها ما يعرض الآن في اللوفر بباريس، ومنها ما يعرض في متحف القاهرة. ثم حتى نهاية القرن التاسع عشر، تمّ اكتشاف سراديب أخرى، مخصّصة لدفن الإله سيرابيس في الإسكندرية، وفي الإسماعيلية.

أما أعجب سيرابيوم فهو ذلك الذي يمتدّ تحت الأرض لمسافات غير معلومة حتى الآن، قد تصل إلى عشرات الكيلومترات، وقد تكون قد عبرت أسفل النيل بين الضفّتين الغربية والشرقية، وهو الذي تمّ العثور

fb/mashro3pdf

فيه على مئات الآلاف من الجثث المحنّطة لطائر أبي منجل وللقرد بابون، وتمّ العثور عليه في تونة الجبل بالمنيا، جبّانة الأشمونين القديمة، التي كانت تسمّى هرموبوليس ماجنا، وتعني مدينة الاله هرميس الكبيرة، في العصر اليوناني، لأن الاله المصري جحوتي وجد فيه الاغريق شبيها بالههم هرميس.

أما الأصل في الاسم القديم للمدينة (أشمونين) فتعني (الثمانية) بالمصرية القديمة الهيروغليفية، وكذلك بالعبرية، لأن المكان يشير إلى قيام ثمانية آلهة بخلق العالم، أربعة أزواج من الرجال والنساء، هم جحوتي وزوجته، ونون وزوجته، وآمون وزوجته، وحكا وزوجته.

أنصحكم إمّا بالبحث في كتاب ميتامورفوزيس Metamorphosis، أو مسخ الكائنات، حسب الترجمة العربية المنشورة لعمل أوفيد Ovide، أو بالتزام الصمت التام.

فمصر هي أكبر متاهة في التاريخ.

التوقيع

فرنسوا جولدينج

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

«لمحت من على باب القاعة، حيث وقفت للحظة واحدة قبل أن أستدير وأغادر المكان برمّته، الفتاة المراهقة جيزيل التي لم أكن أعرف اسمها بعد، وقد ارتدت فستانا خفيفا يقف عند منتصف الفخذين، بحمّالتين عند الكتفين، وبذراعين عاريين، وقد قصّت شعرها الأسود الناعم على الموضة السائدة (آلا جارسون)، وهي تلقي برأسها في دلال على كتف جوزفين، وتقبّلها في عنقها قبلات خفيفة متتالية، وهي نصف مغمضة العينين»

باختلاف درجات (ألوان الطيف) السبعة، تُعَرّي رواية عادل أسعد الميري الثقافتين المصرية والفرنسية على مستويات عدة، الجنس، الدين، التقاليد، التعليم، السياسة، العنف، الفقر، من خلال وجهة نظر شخص أجنبي هو بطل الرواية الفرنسي، الذي يعيش في القاهرة طوال السنة، لطبيعة عمله في السياحة، ويعود الى أوروبا بين فرنسا وانجلترا خلال إجازاته الصيفية. يختلط بالمجتمع المصري لأكثر من عشرين عامًا، ويقرر أخيرًا تسجيل رحلته الطويلة هذه، بين تناقضات المجتمع المصري المتدين ظاهريًا، المهووس بالجنس خلف الجدران، الذي يذكر الله في كل جملة ربما وهو يسرق الآخرين أو يمارس فساده. تحمل الرواية نقدًا قاسيًا للمجتمع المصري، تسلط الضوء على ما أصبحنا نحن المصريين نتعاطى معه باعتباره جزءًا أصيلًا من ثقافتنا، وليس لدينا رغبة في إعادة النظر به، بينما البطل ورغم إقامته الطويلة وتنقله بين محافظات مصر لم يتأقلم مع عبث المجتمع وجنونه

مهنّد الصبّاغ

ISBN 978-977-765-058-8
9 789777 650588

fb/mashro3pdf